

الفصل السادس

العوامل التي أدت إلى ضعف وانهيار العصابة الهانزية في نهاية القرن الخامس عشر الميلادى

• ويشمل :

- 1 - الحروب الدائرة بين القوى الدولية الأوروبية وأثرها على الحركة التجارية.
- 2 - انتشار الأوبئة الفتاكة وانخفاض أعداد السكان.
- 3 - تلاعب الملوك والأمراء فى النقد والعمله.
- 4 - تدخل السلطات الحاكمة فى فرض قيود على الاتحاد.

اتحاد الهانزا وأثره على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا
في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين

(الفصل السادس)

العوامل التي أدت إلى ضعف وانهيار العصبة الهانزية

في نهاية القرن الخامس عشر

يعتبر التغيير والازدهار ثم الانحسار من القوانين الثابتة في حياة البشر جميعاً، ولم تكن العصبة الهانزية Hanseatic League مستثناة من ذلك، رغم ما حققته من مكانة عظيمة، وتوسعتها الذي لاح للجميع في الخارج، وما وصلت إليه من مظاهر الثروة والغنى لجميع أعضائها في مرحلة زمنية طويلة، ومع ذلك بدأت علامات الانحطاط والتدهور تظهر عليها بصورة واضحة، فقد بدأت ببعض التشققات والتصدعات التي لا يحمد عقبائها والتي أخذت تتهددها بتدهور جزئي ثم ما لبث وأن تبع ذلك تدهور وانحيار كامل⁽¹⁾.

ففي النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي أخذت عصبة المدن الهانزية تسير في طريق انحلال تدريجي أدى إلى انحسار في سلطاتها وغناها⁽²⁾، على أن ما تعرضت له العصبة في ذلك القرن من ضعف ثم انهيار يعود لأسباب عديدة متباينة، منها ما يرجع إلى عوامل داخلية وأخرى خارجية، من ذلك روح الأنانية والكبرياء التي سيطرت عليها⁽³⁾. إذ كان من الضروري، أكثر من أى وقت مضى، أن تمشى قدماً إلى الأمام وتواكب تطور العصر، فقد بدأت تخبو الأفكار والمبادئ التي قامت عليها الهانزا، وظهرت حركات تمرد في الدول ضد المفاهيم التي تعلق بالآذهان من السمع والطاعة والاحتكار الأناني من قبل هذه العصبة⁽⁴⁾. والتي أصبحت بمرور الأيام عاملاً من عوامل الاستبداد والحماية معاً، إلا أنها أسرفت في فرض القيود الاستبدادية لاستغلال أعضائها، وأرغمت المدن المنافسة لها بجميع الوسائل على قبول شروطها ولم تتورع عن استئجار القراصنة

(1) Zimmern, The Hansa Towns, P.211.

(2) فشر، تاريخ أوروبا، ج 1، ص 229؛ نعيم فرج، الحضارة الأوروبية، ص 149.

(3) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج 1، ص 599.

- عن هذه العوامل انظر أيضاً:

- نعيم فرج، الحضارة الأوروبية، ص 149.

- Margrit, Networks of the Hanseatic League, PP.12-13.

(4) Zimmern, The Hansa Towns, P.211.

للإضرار بتجارة أولئك المنافسين، وبلغ من أمرها أن نظمت لها جيوشاً خاصة وأقامت من نفسها دولة داخل كثير من الدول، وبذلت كل ما في وسعها للضغط على طبقة الصناع التي تحصل منها على بضائعها وترتب على ذلك أن أصبح الكثير من العمال وغيرهم من الناس يخشونها ويحقدون عليها، ويرون أنها أقوى وسيلة من وسائل الاحتكار قيدت بها التجارة في أى وقت من الأوقات، ولذلك ثار العمال في إنجلترا عام 783هـ/ 1381م وطاردوا كل المنضمين إلى العصبة الهانزية، واقتفوا آثارهم داخل الكنائس وقتلوا العديد منهم⁽¹⁾، الأمر الذي يجعلنا نؤكد هنا على أنه إذا كان الاحتكار والاستبداد عاملاً من عوامل الحماية للعصبة الهانزية خاصة في وقت نموها وازدهارها إلا أنه لم يعد يجدى نفعاً في النهاية وأصبح سبباً من أسباب ضعفها ثم انهيارها كذلك.

وقد كانت هناك عوامل عديدة أسهمت في ضعف وانهيار العصبة الهانزية منها:

1 - الحروب الدائرة بين القوى الدولية الأوروبية وأثرها على الحركة التجارية:

جاء على رأس هذه العوامل الحروب التي دارت بين القوى الدولية الأوروبية والتي أثرت على حركة التجارة خاصة وأن الحروب لا تترك آثارها على النواحي السياسية والاجتماعية فحسب، وإنما امتد تأثيرها إلى النواحي الاقتصادية أيضاً.

اشتعلت في أوروبا العصور الوسطى العديد من الحروب خاصة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين والتي كان لها أثر كبير على الحركة التجارية وكان على رأسها حرب المائة عام The Hundred Years War⁽²⁾، بين إنجلترا وفرنسا والتي أثرت على العصبة الهانزية حتى وإن لم تكن طرفاً مباشراً فيها، إلا أنها أسهمت في تمويل هذه الحرب بما قدمته من أموال كضرائب أو قروض⁽³⁾ للملوك الإنجليز عبر سنواتها الطويلة أرهقت ميزانية المدن الهانزية، إلا أنهم

(1) محمود عمران، حضارة أوروبا، ص170.

- عن فقدان الهانزا لامتيازاتها فيما بين عامي 1551 - 1611م. انظر:

- Lloyd, England and the German Hanse, PP.292-363.

(2) هذه الحرب لم تستمر مائة عام تماماً إذ أن هذه التسمية لا تكون تقريبية تنطوي على كثير من التجاوز وعدم الدقة. عن ذلك انظر:

- سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص492.

(3) قد تم تطوير الضرائب في إنجلترا وقد كان منها ما يفرض على الممتلكات وفي عام 554هـ/ 1159م تم تأسيس أول نظام ترتيبى للضرائب متمثلاً في البدلية وهي عبارة عن مال مدفوع في مقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية. عن ذلك انظر:

اتحاد الهانزا وأثره على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا
في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين

اضطروا لدفعها حفاظاً على امتيازاتهم التجارية داخل إنجلترا وحصّة مشاركتهم في تلك التجارة الإنجليزية خاصة تجارة الصوف الإنجليزي.

كانت الضرائب تجمع من الأجانب والإنجليز كذلك، لأنها تمثل مصدرًا من مصادر الدخل للتاج الإنجليزي الذي خاض كثيرًا من الحروب الخارجية ووفقا للنظرية القديمة التي ترى أن الملك الذي يستكين في بلده فإنه يكسر تدريجيًا⁽¹⁾.

وكان الملوك الإنجليز في البداية لا يلجئون كثيرًا إلى فرض الضرائب، ولكن في القرن الثالث عشر الميلادي توسعوا في ذلك الأسلوب بصورة كبيرة⁽²⁾.

= - Cave, Coulson, A Source Book, P.369.

- كان هنري الثاني Henry II هو من قام في هذا العام بأخذ البديلة من كل إنجلترا وكان الإجمالي 180 ألف جنيه من الفضة. عن ذلك انظر:

- Stubbs, Select Charters of English, A.D. 1159, P.152.

- على أن هذه الأموال لم تكن تجمع للحروب فحسب، وإنما جمعت في بعض الأحيان لعداء بعض الملوك من الأسر، من ذلك ما حدث في السنة السادسة من حكم الملك ريتشارد الأول Richard I لفك أسره وتم جمع البديلة بقيمة عشرين شلن Shillings ولم يكن هناك إعفاءات. عن ذلك انظر:

- The Red Book of the Exchequer, Hubert Hall, Ed. (H.M.) Stat. off, 1896, A.D. 1195, PP.79 , 83.

(1) Terry (S.B.) The Financing of the Hundred Years, war 1337 – 1360, London, 1914, PP.XI- XII.

(2) Terry The Financing of the Hundred Years, War, PP.XI- XII.

- من ذلك ما حدث في عهد هنري الثالث Henry III، إذ كانت هناك حرب لاسترداد نورماندى Normandy، ومع تكاليف هذه الحرب وإسراف البلاط فإن هنري لجأ إلى فرض المزيد من الضرائب لإبقاء خزانة بيت المال ممتلئة. عن ذلك انظر:

- Cave, Coulson, A Source Book, P.375.

- إذ في هذا العام طلب الملك من رؤساء الأساقفة وآباء الأديرة في كل أنحاء إنجلترا أموال كثيرة يدفعونها للملك حتى يستطيع استرجاع الحقوق في البلاد الأجنبية والتي حرم منها والده.

- وقد كان مواطني لندن مجبرين على دفع هذه المبالغ الباهظة وقد دفع اليهود للملك 1/3 ممتلكاتهم. عن ذلك انظر:

- Matthew of Westminster, Flowers of History, translated by C. D. Yong, Vol. II, H. G. Bohn, Ed., London, 1853, A.D. 1230, PP.160 – 161.

- على أن بعض ملوك إنجلترا انتهجوا طريقًا آخر لتغطية نفقاتهم من ذلك ما قام به إدوارد الثاني Edward II من الاستيلاء على ممتلكات فرسان المعبد Templars. عن ذلك انظر:

- Terry, The Financing of the Hundred years war, P.XII. =

برز في القرن الثالث عشر الميلادي مصدرًا جديدًا للثروة الوطنية النامية تمثل في تجارة الصوف لذلك بذل هنري الثالث Henry III جهده من أجل تخفيض الضرائب الغير قانونية التي تفرض على التجارة، وقام إدوارد الأول Edward I في عام 674هـ / 1275م، بتحقيق المزيد في هذا الشأن عن طريق الحصول على المنح أو الامتيازات من البرلمان بخصوص التجارة، حيث رأى أنها أفضل وسيلة لتنمية الموارد الوطنية⁽¹⁾. لذلك أصبحت الضرائب مصدرًا لتمويل الحروب داخل إنجلترا، خاصة في حرب المائة عام وهو الاسم الذي يطلق على المرحلة الأخيرة من مراحل الصراع بين إنجلترا وفرنسا؛ إذ لم تكن تلك الحروب فصلا جديدًا أو حدثًا مفاجئًا في تاريخ العلاقات بين البلدين في العصور الوسطى، لأنها ليست في حقيقة أمرها إلا حلقة في سلسلة النزاع الذي بدأ منذ أن امتلك أمراء نوماندي إنجلترا، وبعبارة أخرى منذ أن أصبحت ممتلكات ملوك إنجلترا النورمان موزعة على جانبي المانش⁽²⁾.

كانت هذه الحرب ذات تأثير اقتصادي إلى جانب تأثيرها السياسي والاجتماعي على غرب أوروبا ككل وليس فقط على إنجلترا وفرنسا فقط لأن الهانزا كانت من ضمن الممولين لهذه الحرب، لأنه بعد طرد اليهود من إنجلترا في عام 689هـ / 1290م احتكر الإيطاليون الأعمال المصرفية ثم نافستهم بعد ذلك الهانزا الألمانية وهانزا لندن - وكانت الأخيرة تضم التجار الفرنسيين

= - لمزيد من التفاصيل. عن ذلك انظر:

- Perkins (C.), American Historical Review, XV., No. 2. January 1910, P.253.

(1) Terry, The Financing of the Hundred years war, PP.XII – XIII.

(2) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص491.

- يذكر المؤرخ ستيفنسون أن حرب المائة عام هي نزاع وصراع بين ملوك إنجلترا وفرنسا أكثر مما هي نزاع بين الشعب الإنجليزي والفرنسي، حيث نشبت معاركهما نتيجة لأطماع ملوكهما. عن ذلك انظر:

- Stephenson, Medieval History, P.516.

- عن مصطلح حرب المائة عام. انظر كذلك:

- نظير سعداوي، تاريخ إنجلترا، ص130؛ أسامة إبراهيم حسيب إبراهيم، تاريخ إنجلترا وفرنسا الدور الأول من حروب المائة عام (1337 - 1380م)، ط1، المكتب العربي للمعارف، القاهرة، 2007م، ص83.

- Painter, A History of the Middle ages, P.323.

والفلمنكيين - ولكن حتى تأسيس الأخيرة مؤخرًا لم تكن هناك أى فئة جديدة من التجار الإنجليز قد ظهرت لمنافستهم وربما كان الإيطاليون هم المنافسون الوحيدون⁽¹⁾. مما أدى إلى إفلاس الكثير من البنوك الإيطالية والإضرار بالمصالح الهانزية كذلك.

خاصة أن هذه الحرب كانت لها أسباب اقتصادية فإذا كان السبب الرئيسى لحرب المائة عام هو النزاع على ممتلكات إنجلترا في القارة، إلا أن هناك أسبابًا أخرى أدت إلى إثارة العداء بين البلدين في نهاية العصور الوسطى أهمها التنافس الاقتصادى بين الدولتين زيادة على تعارض مصالحهما السياسية في القارة⁽²⁾.

وقد اعتقد الإنجليز أن هذه الحروب سوف تحقق لهم غرضين حيويين، أولهما أنها تمكن البحرية الإنجليزية من السيطرة على جانبي هذا البحر، وثانيهما أنها تؤكد بيع أصواف أغنامهم بأسواق المدن الفلمنكية الصناعية، وتسهل عليهم شراء كميات النيذ التي يريدونها من بوردو Bourdaux⁽³⁾، فضلاً عن إيجاد أسواق جديدة بالقارة الأوروبية لتصدير حديدتهم وجلودهم

(1) Terry, The Financing of the Hundred years war, P.XIV.

(2) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص492.

- قد اعتاد المؤرخون أن يقسموا حرب المائة عام إلى ثلاث مراحل وذلك لتسهيل دراستها وتمييزها عن هذه المراحل. انظر: =

= سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص ص492 - 493؛ نظير سعداوي، تاريخ إنجلترا، ص130 - 131؛ أسامة إبراهيم حسيب إبراهيم، تاريخ إنجلترا وفرنسا، ص84.

- لمزيد من التفاصيل عن الأسباب الأساسية التي دعت إلى حرب المائة عام ونتائجها. انظر:

- Oman (C.W.C.), England and the Hundred years war (1327 - 1785 A.D.), London, 1898.

- Fowler (K.), The Hundred Years war, London, 1971.

- Painter, A History of the middle ages, PP.323- 360.

(3) بوردو Bourdaux: مدينة فرنسية تقع على نهر الجارون وعلى بعد 96 كيلو متر من البحر وهي ميناء نهرى رئيسى في الجنوب الغربى من فرنسا، كانت مركزًا تجاريًا مهمًا في العصور الرومانية في القرن الرابع الميلادى أصبحت عاصمة لأكوتين. عن ذلك انظر:

- اينهارد، سيرة شارلمان ترجمة / عادل زيتون، دار حيسان للطباعة والنشر، ط1، دمشق، 1989م، ص127.

إليها⁽¹⁾.

إذا فإن هذا الصراع على الرغم من خلفياته السياسية من النزاع على الممتلكات بين الطرفين، إلا أنه كان صراعاً من أجل خدمة المصالح التجارية خاصة في إقليم الفلاندرز، فإذا كانت دوقية جاسكوني Gascony⁽²⁾، هي السبب الرئيسي لحرب المائة عام⁽³⁾، فإن هناك أسباباً أخرى فرعية أهمها الصدام المستمر بين بحارة السفن الإنجليزية والفرنسية في عصر لم يفرق بين الملاحه والقرصنة، وكذلك التعارض الشديد بين المصالح الإنجليزية والفرنسية في إقليم الفلاندرز⁽⁴⁾. إذ نشبت هذه الحرب نتيجة حادثة وقعت في بلاد الفلاندرز التابعة للتاج الفرنسي تبعية إقطاعية والرغبة في الاستقلال عنه⁽⁵⁾. إذ كان أميرها يطمع في السيادة الكاملة عليها مما أدى إلى دخوله في صراع دائم مع ملك فرنسا سيده الإقطاعي الأعلى من أجل الاحتفاظ بكيان إمارته السياسية، وقد كان أمراء الفلاندرز يتلقون العون من ملوك إنجلترا، والذين كان هدفهم إضعاف وتفتيت الملكية الفرنسية⁽⁶⁾.

بالإضافة إلى جانب أهمية هذا الإقليم بالنسبة لإنجلترا من الناحية التجارية، فقد كانت الصناعة في كل مدن الفلاندرز تقريباً تعتمد على الصوف الخام المستورد من إنجلترا لذا كانت مدن الفلاندرز حريصة على الحفاظ على استقلالها وحذره من امتداد الهيمنة الفرنسية عليها، التي تفقدتها

(1) نظير سعداوى، تاريخ إنجلترا، ص 131 - 132.

(2) جاسكوني Gascony: إقليم يقع في الجنوب الغربي من فرنسا تحده جبال البرانس من الجنوب وخليج بسكاي من الغرب، واسم هذا الإقليم مشتقاً من الباسك أو البشكنس وهي القبائل الإسبانية التي اجتازت البرانس واستولت على هذا الإقليم في القرن السادس، وعُرف باسمهم. عن ذلك انظر:

- Moore, The Penguin Encyclopedia, P.298.

(3) عن النزاع حول مقاطعة جاسكوني. انظر: =

- Robert (M.), Rayner (B.A.), A Concise history of Britain, London, N.D. P.91.

- Terry, The Financing of the Hundred years, P.6

- أسامة إبراهيم حسيب، تاريخ إنجلترا وفرنسا، ص 104.

(4) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص 493.

(5) نظير سعداوى، تاريخ إنجلترا، ص 133.

(6) أسامة إبراهيم حسيب، تاريخ إنجلترا وفرنسا، ص 94.

امتيازاتها الموروثة من جهة وتعوق اتصالاتها التجارية مع إنجلترا من جهة أخرى⁽¹⁾، ونظرًا لأهمية هذا الإقليم فإنه كان محور الصراع بين الإنجليز والفرنسيين حتى قبل بداية حرب المائة عام وكما أن تجارة الصوف بين البلدين تأثرت كثيرًا من جراء ذلك.

تأثرت التجارة بين إنجلترا وفرنسا بالحرب الدائرة بين هنري الثالث (Henry III) 1216 – 1272 م) ولويس التاسع (Louis IX) 1226 – 1270 م) في أكتوبر Aquitaine عام (640هـ/1242م)⁽²⁾، إذ رفض الرهبان السيستريسيان Cistercians⁽³⁾، المساهمة في المصاريف الملكية ولذا منع هنري تجارة الصوف المربحة مع القارة وكان أكثر المضارين في هذا الوقت هم التجار الفلمنكيين Flemish، والفلورنسيين Florentine المهتمين بشراء الصوف من إنجلترا⁽⁴⁾، وفي نفس الوقت أصدر الملك الفرنسي بأسلوب غير معتاد أوامره بمنع عبور التجار الإنجليز ببضائعهم داخل مملكته، وبناء عليه أصدر ملك إنجلترا أوامره أيضًا بأن يعامل التجار الفرنسيين في أي مكان في إنجلترا بنفس المعاملة⁽⁵⁾. وبناء على ما سبق قام ملك إنجلترا في عام 642هـ / 1244م بمنع نقل الصوف الخاص بالرهبان السيستريسيان إلى القارة لبيع لصالحهم وإجراء مثل هذا يؤكد تعرضهم للخسارة لأنهم لم يقدموا له المساعدة اللازمة للملك عند حربه في جاسكوني Gascony⁽⁶⁾.

وهكذا تعارضت المصالح الإنجليزية والفرنسية في إقليم الفلاندرز وكانت الأساليب التي تتبع

(1) أسامة حسيب، تاريخ إنجلترا وفرنسا، ص95.

(2) أكتوبر Aquitaine: تقع جنوب غرب فرنسا وتمتد من جبال البرانس إلى نهر اللوار وكانت تخضع للرومان حتى قام الملك الفرنجي كلوفيس بغزوها عام 507م وتعاقب على حكمها بين القصير عام 768م ثم شارلمان 781م الذي منحها لأبنائه من بعده، وبعد الفترة الكارولنجية أصبحت إقطاعًا قويًا في القرن الحادي عشر الميلادي وكانت تضم قطاعات كثيرة أهمها بواتية وليموج وبوردو وجاسكوني وأوفرون. انظر: Webster, Webster New geographical, P.63.

(3) السيستريسيان: تنسب الحركة الديرية السيستريسيانية إلى بلدة سيتو Citaux في برجنديا بوسط فرنسا وقد تم تأسيس ديرسيتو هذا في عام 1098م بواسطة مجموعة من الرهبان البندكتيين الذين رغبوا في حياة أكثر خشونة وصلابة من الحياة الديرية السائدة عندئذ. عن ذلك انظر:

- سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج2، ص38؛ نظير سعداوي، تاريخ إنجلترا، ص86.

(4) Cave, Coulson, A Source Book, P.107.

(5) Royal Interference with trade, in: Matthew of Paris, English History, Vol. I, A.D. 1242, P.410.

(6) Matthew of Paris, English History, A.D. 1244, Vol. I, P.511.

من الجانبين تضر التجارة عبر هذا الإقليم وليس من شك في أن هذا قد أضر بتجارة العصابة الهانزية التي كانت أحد مراكزهم الخارجية تقع في بروج Bruges، في الفلاندرز، إلى جانب أن هؤلاء التجار كانوا هم من يقومون باحتكار التجارة النشطة في الصوف والمنتجات الصوفية بين الفلاندرز وإنجلترا قبل أن ينافسهم فيها التجار الإنجليز.

لم يقتصر الأمر بين الطرفين على حد منع التجار من العبور أو منع تصدير الصوف فحسب، وإنما امتد إلى أبعد من ذلك ففي عام 737هـ / 1336م ألقى الكونت لويس صاحب الفلاندرز⁽¹⁾، بناء على تعليمات صدرت إليه من سيده فيليب السادس⁽²⁾ (729 – 751هـ / 1328 – 1350م) بباريس بالقبض على جميع المقيمين ببلاده أو العابرين إليها من الإنجليز وزج بهم في السجون بتهمة تحريضهم أهل الفلاندرز على الثورة ضد السيادة الفرنسية، وتغذيتهم بالآراء الثورية التقدمية وردت إنجلترا على ذلك الاعتداء الشنيع في السنة التالية بمنع تصدير الأصواف الإنجليزية إلى بلاد الفلاندرز ومنع الأسواق الإنجليزية من استيراد الأقمشة الصوفية الفلمنكية رغبة في شل الحركة التجارية⁽³⁾، وسعى الملك إدوارد في الوقت نفسه إلى حماية الصناع الفلمنكيين فنقلهم إلى

(1) كان لويس كونت الفلاندرز تابعًا لملك فرنسا - فيليب السادس - قد ثار أهالي الفلاندرز ضده فاضطر لويس إلى الفرار مما جعل فيليب السادس يسرع لحمايته فأعادته إلى بلاده بعد أن أنزل بالفلمنكيين هزيمة ساحقة في كاسل Cassel سنة 1328م. عن ذلك انظر:

- سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص ص 493 - 494.

(2) فيليب السادس: تولى عام 1328م، عندما توفي آخر أبناء فيليب الرابع ملك فرنسا دون أن يترك وريثًا ذكرًا يخلفه على العرش فاستغل إدوارد الثالث الفرصة وطالب بعرش فرنسا على أساس أن أمه ابنة فيليب الرابع، وعلى هذا يبدو حقه في عرش فرنسا، ولكن زعماء فرنسا لم يوافقوا على مبدأ أحقية الابنة في وراثة العرش، ولذلك اختاروا فيليب فالوا - الذي أصبح فيليب السادس (1328 - 1350) - ليؤسس أسرة جديدة حلت محل أسرة كاييه في حكم فرنسا. عن ذلك انظر:

- سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص 493.

(3) نظير سعداوى، تاريخ إنجلترا، ص 133 عن ذلك انظر أيضًا:

- سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص 494.

- عن القرارات المتخذة من الجانبين في عامي 1336 - 1337م ونتائجها. انظر:

- Terry, The Financing of the Hundred years war, PP.5- 6.

بلادها وأسكنهم في إقليم نورفلك Norfolk⁽¹⁾، وبدأت تظهر صناعة الأصواف في ذلك الإقليم، وكانت النتيجة الطبيعية لتلك المقاطعة التجارية بين إنجلترا ومدن الفلاندرز أن حل الخراب الاقتصادي بالأخيرة ونسبه الأهالى إلى سياسة ملك فرنسا الخاطئة فقامت الثورات في تلك المدن التي سادت بها روح النظم الإنجليزية الديمقراطية⁽²⁾ نتيجة الروابط التجارية القديمة بين الإقليمين⁽³⁾. ونستطيع أن نؤكد هنا أن نمو صناعة الصوف داخل الأقاليم الإنجليزية هو الذى دفع الإنجليز فيما بعد إلى رفض الاحتكار التجارى الذى مارسه تجار العصابة الهانزية داخل إنجلترا، وبوجه عام فقد ازدادت حدة العداء تجاه تجار الهانزا في إنجلترا وفي غيرها من البلدان وأصبح التجار المحليين يسعون إلى أن يشاركوا بأنفسهم في التجارة الشمالية.

أما فيما يتعلق بصناعة الملابس الإنجليزية المتزايدة فإنها توقفت ولم تغزو الأسواق العالمية بسبب سياسة الملوك الاقتصادية "حيث فرضوا ضرائب استثنائية على صادرات الصوف إلى الحد الذى شجع على المبيعات المحلية، وإنتاج الملابس المحلية"، وهذا أدى إلى استياء متزايد حول سيطرة الهانزيين على التجارة في أواسط القرن الخامس عشر فقد أصبح الإنجليز مولعين بأن يكونوا تجارًا

(1) نورفلك Norfolk: كونه إنجليزية تضم مناطق الجنوب حيث منطقة Cambridgeshire ومن الغرب Lincolnshire ومن الشمال والشرق بحر الشمال. عن ذلك انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. VII, P.387.

(2) النظم الإنجليزية الديمقراطية: سادت النظم الديمقراطية داخل إنجلترا منذ زمن بعيد ممثلة في العهد الأعظم (الماجنا كارتا) الذى حدد العلاقات بين الملك وأتباعه وبين الكنيسة والدولة، كما ساعد الإكثار من دعوة البرلمانات الإنجليزية إلى الانعقاد لمشاورتها في مختلف المسائل القومية، ساعد بلاريب على تربية البلاد تربية سياسية سليمة. عن ذلك انظر:

- نظير سعداوى، تاريخ إنجلترا، ص 95، 112.

(3) نظير سعداوى، تاريخ إنجلترا، ص 133.

- كان إدوارد يقوم بتأييد مواطني المدن الفلمنكية ذات المكانة الكبيرة في صناعة ونسج القماش أمثال Ghent وبروج Bruges في تمردهم ضد أكبر لورداتهم كونت الفلاندرز، وقد ناشد كبار لورداتهم ملك فرنسا حيث قام الأخير بإعلان أن إدوارد من خلال دعمه لهؤلاء المتمردين في طلباتهم من الأفضال التابعين لدولته فإنه قد خسر بذلك إقطاعيته جاسكوني تماما، كان هذا هو السبب المباشر للحرب. عن ذلك انظر:

- Robert, Rayner, A Concise history of Britain, P.92

وسعوا إلى الحصول على حقوق تبادلية في البلطيق لكن دون فائدة⁽¹⁾.

وكانت تلك السياسة التي انتهجها ملوك إنجلترا في فرض الضرائب على صادرات الصوف تهدف إلى تغطية تكاليف حربهم مع فرنسا - حرب المائة عام- إذ قام إدوارد الثالث Edward III، في عام 738 هـ / 1337م باتخاذ الخطوات اللازمة لتأمين احتكار التاج لإنتاج الصوف لهذا العام وكانت الخطوة الأولى، عندما قام البرلمان بوقف مؤقت لتصدير الصوف وبعد المفاوضات المتكررة مع التجار الإنجليز، وفي يوم 21 يوليو شرع إدوارد في اتخاذ الخطوات النهائية للبرنامج الذي يبدو أنه تم إعداده من شهر مارس، ونص على أنه يجب بيع ثلاثين ألفاً من بالات الصوف بأسعار محددة من قبل المجلس وبعدها يتم تصديرها للجهات التي يحددها المجلس، وأن يتم بيعها هناك على أن تعود أرباحها إلى الملك، ومن السمات البارزة لهذا المخطط هو أن الشؤون الداخلية أوكلت إلى التجار الإنجليز، كما تم تحديد الأسعار التي يجب دفعها للصوف في كل كونتية ومقاطعة، وكان التجار يحصلون على مساعدة موظفي الملك في الجبايات وفي حماية أسطولهم المحمل بالأصواف⁽²⁾.

وهكذا كان إدوارد يقوم بجمع الأموال اللازمة لتلك الحرب من خلال فرض سيطرته على تصدير الصوف الإنجليزي إلى جانب القروض الضخمة التي حصل عليها من المصرفيين اللومبارديين والاستيلاء على بضائع الأجانب وممتلكات مقدمى الأديرة والاقطاعات الغربية- في إنجلترا وفرنسا-

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.19.

(2) Terry, The Financing of the Hundred Years war, PP.6 – 7

- قد كان يتم تحديد جميع الرجال الذين يتعين عليهم القيام بجمع الضرائب على تصدير الصوف، وكان يتم تحديد مسؤوليات كل منهم علاوة على ذلك كان للتجار شرف الاجتماع معاً في نورثهامبتون Northampton عندما يرغون ويكون الحكم لصالح الملك، بعد أربعة أيام في 26 يوليو، كما أصبح من حق التجار كل في المقاطعة المسئول عنها تحديد المبالغ التي يجب أن تجبي منها على الصوف في كل مقاطعة. وفي نفس الوقت كان هناك إشعارات إلزامية أرسلت إلى جامعي الضرائب، الذين كان قد وصل إليهم من شهر مارس (Coket) محتوم من أجل وقف تصدير الصوف، وتم إرسال ملاحظات لهم للسماح للتجار المحدد أسماؤهم بتصدير الصوف طبقاً لمعدلات الجمارك المذكورة في العقد، ولكنها في الوقت الحالي اقتصرت على أية حال على 10.000 بالة. عن ذلك انظر:

- Terry, The Financing of the Hundred years war, PP.7-8

- عن الحقوق الاحتكارية التي مارسها إدوارد الثالث على تجارة الصوف الإنجليزية من أجل دعم حرب المائة عام. عن ذلك انظر:

- Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, PP.336-337.

والأجانب لتوضع في يد الملك⁽¹⁾.

شهدت السنوات من 738 - 741هـ / 1337 - 1340م منافسة عامة بين جميع تجار الهانزا، والفلمنكيين واللومبارديين، والإنجليز، بسبب التمويل إلا أن أساليب الحكومة الإنجليزية في ذلك أخذت صورة متهورة ومبتدلة، فلقد كان الملك إدوارد الثالث Edward III، حريصاً على مواصلة الحرب، إذ لم يتنبأ بالعواقب ولم يفكر إلا في وضع الجيوش في آن واحد في الميدان ضد فرنسا. لذا وجد نفسه مديوناً من الائتمان بديون هائلة فكثرت الدائنون الأجانب مما أدى إلى ضياع ثروات البلاد وأثار المعارضة الساخطة عليه من 741 - 744هـ / 1340 - 1343م فاضطر حزب الإصلاح الإنجليزي إلى مواجهة الدائنين الأجانب للتاج للاستحواذ على التمويل وتعد هذه الفترة هي التي سهلت للتجار الإنجليز الوصول إلى السلطة، وفي عام 744هـ / 1343م تكونت أولى الشركات الإنجليزية لتحسين موارد التاج الإنجليزي، وظهروا بأنفسهم في السلطة أثناء كارثة الوباء الأسود Black Death⁽²⁾، الذي دمر أوروبا وأدى إلى سقوط لومبارديا وأطاح بالهانزا

(1) Terry, The Financing of the Hundred years war, PP.8 - 9.

(2) الوباء الأسود: اجتاحت أوروبا في الفترة (1348 - 1349م) وقد حصد من الناس أكثر مما أفتته مائة سنة من الحروب، في العصور الوسطى إذ امتد الموت الأسود وهو طاعون دملي من أحد مواطنه بالشرق الأقصى - ولعلها الهند - عبر طرق التجارة الدولية في تلك العصور إلى أوروبا بعد أن وصل إلى مصر وغيرها من بلاد الشرق الأوسط، إذ زحف من آسيا على امتداد طريق التجارة البري الرئيسي بين الشرق والغرب ومن ثم تطرق إلى شرق أوروبا وغربها فضلاً عن بلاد الشرق الأدنى، كأن هذه الطرق لم تكن تحمل البضائع والحياة للناس فحسب، إذ في بعض الأحيان كانت تحمل العدوى والموت كذلك.

- ولقد وصف المؤرخ المصري المشهور المقريزي هذا الطاعون وصفاً مسهباً فكان وصفه خير وصف لأعراض هذا الوباء وآثاره في البلاد التي انتشر فيها، فقال: إنه عم أقاليم الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً.

- وأصاب جميع أجناس بني آدم وغيرهم حتى حيتان البحر وطيور السماء ووحش البر، وأول ابتدائه شمال البحر الأسود، وبحر قزوين وحوض الثلج، وحملته الريح إلى بقية البلاد، فمر باسطنبول وأنطاكية وبغداد وجميع بلاد الشام، وابتدأ في أرض مصر في خريف 748هـ، فمات بالقاهرة والفسطاط ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف إلى عشرين ألف نفس كل يوم. عن ذلك انظر:

- المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج/2، ق/3، تحقيق/ محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1941م، صص 772- 781؛ نظير سعداوى، تاريخ إنجلترا، صص 139 - 140؛ سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص 591 حاشية (58).

Hanse⁽¹⁾.

وإذا تتبعنا نتائج هذه الحرب من الناحية الاقتصادية نجد أنها أفلست الخزانة المالية في كل من الدولتين وامتصت كل مواردهما، وأفسحت مجال الربح لرجال المال الإيطاليين، والمرابنين اليهود في لندن، لأنهم أقرضوا المال لإدوارد الثالث فضلاً عن اقتراضه من بنوك الفلاندرز، كما أجبرت الحرب الانجليز على تصنيع أصواف أغنامهم أقمشة في إنجلترا بدلا من تصديرها خامًا إلى أسواق أوروبا فأقاموا المصانع في بلادهم، ووضعوا اللبنة الأولى للصناعة وبنمو الرأسمالية، كما جعلتهم يفرضون ضريبة الرأس على جميع المواطنين عام 783هـ/ 1381م لسد نفقات الحرب⁽²⁾.

كان البدء في هذه الصناعة ورغبة الانجليز في العمل بالتجارة أيضًا الدافع إلى مواجهة التجار الأجانب داخل مدنهم ورفضهم لسيطرة هؤلاء التجار الاحتكارية على تجارة الصوف الانجليزية، فتم نتيجة لذلك مواجهة تجار الهانزا لكسر سلطتهم الاحتكارية على الرغم من أنهم كانوا مصدرًا رئيسيًا من مصادر تمويل التاج في تلك الحرب⁽³⁾. وإذا كانت هذه المواجهة قد سببت أضرارًا كبيرة للهانزا داخل لندن، إلا أنها لم تنه وجودها في إنجلترا آنذاك إذ من اللافت للانتباه أن تجار الهانزا ظلوا يشاركون في معارض إنجلترا بشكل أفضل معظم فترات أواخر العصور الوسطى، ولعل ذلك يرجع إلى أنه كانت تحميهم الحقوق التي منحها لهم التحالفات أثناء حرب المائة عام وحرب الوردتين Wars of the Roses⁽⁴⁾، وهذا ما جعل الامتيازات التي حصلت عليها الهانزا في

= - Hecker (M.D.) The Black Death in the Fourteenth Century, tre. Babington (M.D.), London, 1833, P.55.

(1) Terry, The Financing of the Hundred Years war, P.XX.

(2) نظير سعداوى، تاريخ إنجلترا، ص167؛ أسامة إبراهيم حسيب، تاريخ إنجلترا وفرنسا، ص 320 - 321.

(3) فلقد رأينا من قبل كيف أن إدوارد الثالث قام في عام 1369م، بمطالبة المساهمة لحرب غير عادية من التجار الأجانب المقيمين في لندن، حيث طلب مبلغ قدره 62 جنيها استرليني من جميع التجار الألمان. عن ذلك انظر:

- The Hanse Towns, in: Colvin, The Germans in England, P.237.

(4) حرب الوردتين (1435 - 1485م) لم تكد إنجلترا تختم حرب المائة عام على فرنسا عام 1453م حتى بليت بحروب داخلية أهلية عرفت باسم حرب الوردتين التي خاضها فرعان متنافسان على عرش إنجلترا، وينتميان أصلا إلى أسرة إدوارد الثالث، هما فرع أسرة لنكستر صاحبة الوردة الحمراء، وفرع أسرة يورك =

انجلترا تستمر وتتجاوز بسبب استفادتهم من التاج الإنجليزي، حتى وإن أسفرت العلاقات المتوترة عن حرب الأنجلو هانزا، التي استمرت لأربعة أعوام في الفترة من عام 875 – 879هـ / 1470 – 1474م إلا أن الوجود الهانزي في إنجلترا ظل حتى تم تدمير ستيليارد لندن في عام 1077هـ/1666م⁽¹⁾.

كما أعطت حرب الثلاثين عامًا⁽²⁾، المدمرة ضربة قاسمة للعصبة الهانزية لم تترك تلك الحرب وراءها سوى كومة من الأطلال وقد كانت عواقبها وخيمة حتى أن ألمانيا لم تشف من بعض آثارها لفترة طويلة لاحقاً⁽³⁾.

2 - انتشار الأوبئة الفتاكة وانخفاض أعداد السكان:

يذكر المؤرخ بيرين أنه من الممكن اعتبار بداية القرن الخامس عشر الميلادي نهاية مرحلة اتساع اقتصاد العصر الوسيط، وحتى ذلك التاريخ كان التقدم مستمرًا في كل الاتجاهات، ولقد صار

= صاحبة الوردة البيضاء، وانضم إلى كل من الفرعين أنصار من النبلاء وأتباعهم وصار السبب العام لهذه الحرب أن النبلاء الإنجليزي ضاقوا بالحياة الوادعة في ظلال السلم الذي أعقب حرب المائة عام. عن ذلك انظر:

- نظير سعداوى، تاريخ إنجلترا، ص 170 – 172.

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.19.

- قد ظلت مباني الستيليارد Steelyard بلندن قائمة حتى تم إحراقها وتدميرها عام 1666م. عن ذلك انظر:

- Colvin, The Germans in England, P.238

- Quesenbery, The Institutional Success, P.25.

- لمزيد من التفاصيل. عن ذلك انظر:

- Der hansische Stahlhof Vom Jahre 1598 bis Zum grossen Brande von London 1666, in: Lappenberg, urkundliche Geschichthe, PP.107-120.

(2) حرب الثلاثين عامًا: هي اسم تقليدي للفترة (1618-1648م)، هي عبارة عن 50 عامًا من سنوات الصراع لتوازن القوى الأوروبية (1610-1660م)، التي قام بها أسرة الهابسبورج Habsburgs والأمراء الألمان. وكان ذلك في إطار نضال فرنسا ضد الحصار من قبل قوى هابسبورج (النمسا وأسبانيا) والجهود التي تبذلها الجمهورية الهولندية (المقاطعات المتحدة من هولندا) = للحفاظ على استقلالها عن أسبانيا. وفي بداية حرب الثلاثين عامًا كانت الدانمارك والسويد تتنافس على السيادة على البلطيق. عن ذلك انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. IV, P.957.

(3) Zimmern, The Hansa Towns, P.215.

اتحاد الهانزا وأثره على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين

التحرير المتزايد لطبقات الفلاحين يداً بيد في جهة إصلاح الأراضي غير المزروعة أو الأراضي البور وإصلاح صرفها وإعمارها مع استيطان القبائل الجرمانية للأراضي وراء الألب، ولقد غير قيام الصناعة والتجارة شكل المجتمع وكيانه بالفعل تغييراً تاماً، بينما أصبح البحر المتوسط والبحر الأسود من جانب وبحر الشمال والبلطيق من جانب آخر مسارح لتجارة كبرى، وانبثقت الموانئ والمراكز التجارية على طول سواحلها وفي جذورها، وتغطت أوروبا بمدن لمع نور نشاط طبقتها الوسطى الجديدة في كل اتجاه، وفي ظل هذه الحياة الجديدة، كان التعامل المالي تعاملًا متكاملًا، واستخدمت أشكال التسليف والائتمان، وتقدم إقراض رؤوس المال، وأخيرًا بدأ النمو السكاني إشارة لا تخطيء لصحة ونشاط المجتمع، وخلال السنوات الأولى من القرن الرابع عشر شهد إعادة النظر في كل هذه الاتجاهات ولم يكن من المحتمل حدوث تدهور بقدر ما حدث من جمود لكل ما سبق، فلقد عاشت أوروبا، كما يمكن القول على ما كانت قد اكتسبته بعد أن استقرت جبهتها الاقتصادية⁽¹⁾.

ولعل الدليل على هذا الانقطاع في النمو الاقتصادي نجده فجأة في حقيقة انحسار حجم التجارة الخارجية وحتى زمن الكشف الجغرافية العظيمة في منتصف القرن الخامس عشر لم يتجاوز النمو الاقتصادي النقاط القصوى التي وصل إليها على يد البحارة الإيطاليين في الجنوب وعلى يد الهانزا في الشمال، ونعني بذلك، موانئ بحر إيجه والبحر الأسود من جانب ومن الجانب الآخر سوق نوفجورود الروسي⁽²⁾. إذ من العدالة أن نشير إلى أن القرن الرابع عشر لم يواصل تقدمه، بسبب الكوارث التي لحقت به وكانت مسئولة عن ذلك، ولقد بدأ أن المجاعة المخيفة التي سببت الخراب لكل أوروبا من 715هـ/ 1315 م إلى 717 هـ / 1317 م والتي لم يشهد مثلها من قبل، وأن الأرقام التي ذكرت حول مدينة يبرس Ypres، تجعلنا نقدر اتساع هذه المجاعة حتى أن حكومة المدينة كانت قد أمرت بدفن ألفين وسبعمائة وأربعة وسبعين جثة من بداية مايو حتى منتصف أكتوبر 716هـ/ 1316 م وهو عدد كبير إذا ما وضعنا في اعتبارنا حقيقة أن عدد سكان هذه المدينة كان آنذاك لا يزيد عن عشرين ألف نسمة، وبعد ذلك بعدة سنوات حدثت كارثة أكبر، ألا وهي انتشار الطاعون (الموت أو الوباء الأسود Black Death)، في العالم الذي لم يكن قد فاق

(1) تاريخ أوروبا، ص 181 - 182.

(2) بيرين، تاريخ أوروبا، ص 182.

بعد من ضربته الأولى⁽¹⁾.

وهكذا نجد أن المحن قد تكالبت على أوروبا في أواخر العصور الوسطى ما بين مجاعات طاحنة أطاحت بأعداد السكان وحروب مهلكة كبدت أوروبا خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات وأوبئة فتاكة أهلكت الآلاف من البشر في أوروبا وفي العالم بأسره، مما أدى إلى تدهور النظام الاقتصادي وتراجع نموه إذ إن النمو السكاني والازدهار الذي تميز به الاقتصاد الأوروبي منذ منتصف القرن العاشر بدأ في التلاشى والضمور، وانزلقت أوروبا في تدهور طويل ومربك استمر حتى منتصف القرن الرابع عشر مما جلب السخط الاجتماعي والتمرد الذي يشيع في مرحلة الانكماش الاقتصادي⁽²⁾، فقد اتصفت أواخر القرون الوسطى تلك بالركود الاقتصادي إلى جانب أن الوباء الأسود أهلك سكان أوروبا في عام 749 هـ / 1348 م وتلاه بعد ذلك كل عشر سنوات نوبات للمرض، أما الحروب والمجاعات فقد أدت إلى تفاقم الوضع الاقتصادي وجعلته يسوء يوماً بعد يوم فقد انخفض الإنتاج الزراعي والطلب عليه في الوقت الذي ظهر فيه الطلب على بعض المنتجات غير الزراعية، كما أن عدد السكان كان في تناقص ولم يشهد زيادة تذكر.

وعلى الرغم من أن التجارة الهانزية قد تحملت تلك الظروف في هذا العهد، إلا أن القوة الدافعة للتوسع الألماني في الشرق هدأت حيث وصل المهاجرون الجدد محل سابقهم دون أن يحدثوا إضافة في الطاقة الإنتاجية⁽³⁾، وهو ما يدفعنا إلى أن نؤكد على أن هذه العوامل والأسباب السابقة الذكر واللاحقة كذلك قد أدت إلى ضعف العصبية الهانزية وساهمت في انهيارها فيما بعد إذ أنها ظلت قائمة حتى القرن السابع عشر الميلادي (1666م) إلا أنها بدت في حال غير الحال إذ لم تعد على ما كانت عليه من توسع وازدهار ولم تعد تتمتع بالاحتكار كذلك.

كان الوباء الأسود، الذي اجتاح أوروبا (749 - 750 هـ / 1348 - 1349 م) أشدها تأثيراً فقد كان أكثر الأوبئة التي ذكرت في التاريخ فظاعة دون نزاع، وحتى قدر أنه من سنة 748 هـ / 1348 م حتى سنة 751 هـ / 1350 م من المتوقع أن يكون قد أهلك ثلث سكان أوروبا

(1) بيرين، تاريخ أوروبا، ص 183.

(2) نورمان ف. كانتور، التاريخ الوسيط قصة حضارة البداية والنهاية، ترجمة / قاسم عبده قاسم، ج 2، عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1997م، ص 625.

(3) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.18 - 19.

وقد أعقبه فترة غلاء شديد⁽¹⁾.

وهكذا استعر الأمر واشتد الكرب بالناس، على أنه مهما يكن مصدر هذا الوباء فإنه انتقل من آسيا الصغرى إلى إيطاليا وإسبانيا، ثم زحف إلى فرنسا عن طريق مرسيليا ودخل إنجلترا من عام 1348 إلى عام 1349م عن طريق مقاطعة دورستشر Dorchester⁽²⁾، ثم تحول شرقاً فاجتاز ألمانيا وبلاد شبه جزيرة اسكندناوة ومنها اشتعل في بولندا والنمسا وروسيا وعكف ذلك الطاعون على اختيار الشباب والأقوياء دون غيرهم من الناس وأخذهم أخذاً سريعاً بعض الأحيان إشفافاً بهم، وبسببه اضطرت إنجلترا وفرنسا إلى الكف عن القتال لكثرة الوفيات التي اختلف المؤرخون في أرقامها إذ قدرت الأموات في إنجلترا وحدها بما لا يقل عن ربع سكانها البالغ عددهم حينذاك أربعة ملايين تقريباً، وذكر بعض المؤرخين أن إنجلترا فقدت نصف سكانها وأن مدينة لندن دفنت خمسين ألف جثة في مقبرتها الجديدة المقامة على ثلاثة عشر فداناً، وأن اثنين من رؤساء أساقفة كانتري ذهباً ضحية هذا الوباء، كما ماتت الأميرة جوانا ابنة الملك وأن خسارة طبقة رجال الدين كانت أفدح من طبقات المجتمع الأخرى⁽³⁾.

وهكذا عانت أوروبا بأسرها من جراء هذا الوباء حيث كثرت ضحاياه وأكثر ما يهمنها هنا هو النتائج الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة التي ترتبت عليه، ذلك أن أوروبا فقدت بسبب هذا الوباء نسبة ضخمة من سكانها تتراوح بين الثلث والنصف مما أثر في الحياتين الاقتصادية والاجتماعية تأثيراً خطيراً، بعد أن قلت الأيدي العاملة وتعطلت الأشغال وارتفعت الأسعار، وتوقفت التجارة، واختل الكثير من المقاييس الاقتصادية والاجتماعية التي عرفتها أوروبا العصور الوسطى⁽⁴⁾. وليس أدل على ذلك من الهجرة التي اجتاحت مدن أوروبا حيث حاول الناس الهروب

(1) بيرين، تاريخ أوروبا، ص 183 – 184.

(2) دورستشر Dorchester: مقاطعة بإنجلترا، تطل على الساحل الجنوبي بين ديفونشاير Devonshire غرباً، وهامبشاير Hampshire شرقاً، ومجدها شمالاً Wiltshire و Somersetshire. عن ذلك انظر:

- Conder (J.), A dictionary of geography, ancient and modern, 1834, P.195.

(3) نظير سعداوى، تاريخ إنجلترا، ص 140 – 141.

- لمعرفة بعض الحسابات والأرقام عن ضحايا الطاعون الأسود بالمدن الأوروبية، انظر:

- Hacker, The Black Death, PP.58 – 66.

(4) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج 1، ص 591.

من ذلك الوباء، أما مدينة لوبيك التي تماثل البندقية في الشمال فلم تعد قادرة على احتواء الجموع الغفيرة التي اندفعت إليها، والتي كانت في حالة من الذعر إثر انتشار وباء الطاعون، حيث دمر المواطنين أنفسهم كما لو كانوا قد أصيبوا بالجنون، حتى أن التجار الذين كانوا يسعون للأرباح والتملك والربح غير المحدود قد تخلوا بطيب خاطر عن بضائعهم الدنيوية، فقد حملوا كنوزهم للأديرة والكنائس ووضعت لهم أسفل المذبح⁽¹⁾. فلم يكن في وسع الناس في وسط تلك المحنة سوى الهروب نحو الكنائس والأديرة متضرعين سائلين كشف هذه الغمة، وطالبن رحمة الكنيسة وحمايتها⁽²⁾.

وليس أدل على ما وصل إليه الناس من جراء هذا الوباء أكثر من وصف المقريزي (صارت الأموات على الأرض لا يوجد من يدفنها، وعم الوباء جميع تلك الأراضي، ومات الفلاحون بأسرهم فلم يوجد من يضم الزرع، وزهد أرباب الأموال في أموالهم)⁽³⁾، وإن كان وصف المقريزي للوباء في الشرق، إلا أن الوضع كان مماثلاً في الغرب كذلك.

ومن الملاحظ أن أثر الوباء الأسود لم ينته عند منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، وإنما استمرت نتائجه - ممثلة في قلة الأيدي العاملة وارتفاع الأجور والأسعار - تؤثر في أحوال أوروبا حتى نهاية ذلك القرن⁽⁴⁾. خاصة وأن الكوارث الطبيعية كانت مصاحبة لكوارث سياسية ليست أقل منها، فلقد تمزقت إيطاليا من الحروب الأهلية طوال هذا القرن، أما ألمانيا فكانت تُهبأ لفوضى سياسية دائمة، وأخيراً فإن حرب المائة عام دمرت فرنسا وأجهدت إنجلترا كل ذلك كان اثقالاً لكاهل الحياة الاقتصادية فقد تقلص عدد المستهلكين وفقد السوق جزء من قوة تماسكه، وزادت هذه النوائب بالتأكيد من حدة المشاكل الاقتصادية التي جعلت القرن الرابع عشر الميلادي أعنف من القرن الثالث عشر الميلادي⁽⁵⁾، خاصة مع ثورات الفلاحين والحرفيين ضد الارستقراطية، إذ تزايدت هذه الثورات وعمت أوروبا نتيجة لسياسة الاحتكار التي مارستها هذه الطبقة الصغيرة

(1) Hacker, The Black Death, P.61.

(2) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص591.

(3) المقريزي، كتاب السلوك، ج2، ص778.

(4) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص591 - 592.

(5) بيرين، تاريخ أوروبا، ص184.

الارستقراطية، على الرغم من معاناة باقى الطبقات الأخرى⁽¹⁾.

ونستطيع أن نؤكد هنا أن العصبية الهانزية تأثرت بكل هذه الظروف السائدة في أوروبا في أواخر العصور الوسطى من حروب طاحنة وأوبئة فتاكة وثورات كذلك، إلا أن تجارتها نجحت في تحمل كل تلك الظروف، على الرغم من انكماشها على نفسها وأنها لم تعد تحدث إضافة في الطاقة الإنتاجية.

3 - تلاعب الملوك والأمراء في النقد والعملية:

كان توافر العملات جيدة السبك، ذات القيمة المستقرة، أمرًا ضروريًا من أجل تحقيق الاستقرار الاقتصادى، إذ لا يمكن أن يكون هناك نمو اقتصادى وتجارى دون توفر عملات ذات أوزان معلومة وهو أمر ضرورى كذلك لتطور النظم والمعاملات المالية. أدرك الملوك والكونتات في أوروبا هذا الأمر في القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين، لذا سعوا إلى إيجاد عملات جيدة للتعامل داخل الأسواق وفى التعامل الاقتصادى فقد حرص كونت الفلاندرز على إيجاد نظام عملة مستقر وجيد⁽²⁾، إلى جانب ما قام به الإمبراطور فردريك برباروسا Frederick Barbarossa كذلك من إيجاد عملات ذات أوزان ثابتة⁽³⁾، وهو ما قامت به مدن الهانزا كذلك في عام 653 هـ / 1255م، حين اتفقت كل من هامبورج Hamburg، ولوبيك Lübeck، على توحيد العملة وعدم سك أى طرف منهما عملة جديدة دون موافقة الطرف الآخر⁽⁴⁾.

ولعل الدافع وراء ذلك لم يكن الرغبة فى النمو الاقتصادى والمحافظة على المعاملات التجارية فحسب، وإنما أيضاً لأن أوروبا العصور الوسطى عانت من مشكلات كثيرة فيما يتعلق

(1) عن ثورات الفلاحين والحرفيين التى عمت أوروبا وأسبابها ونتائجها، انظر:

- بيرين، تاريخ أوروبا، ص 184 - 194؛ نظير سعداوى، تاريخ إنجلترا، ص 145 - 146.

(2) A Charter for the Town of St. Omer, in: Kemble, The Saxons in England, A.D. 1127, Vol. II, Appendix, P.528.

(3) Grant of two Fairs at Aix - la - Chapelle, in: Menadier, Die Aachener Munzen, A.D. 1166, P.58.

(4) Coinage Agreement Between Hamburg and Lübeck, in: Sartorius, Urkundliche Geschichte, Vol. II, A.D. 1255, P.71.

بالنقد والمعاملات التجارية، منها أن كثير من الأمراء الإقطاعيين كانوا يتمتعون بحق سك العملة الخاصة بهم⁽¹⁾، ولا يخفى ما في ذلك من أضرار إذ لا يمكن التحكم في قيمة العملة ونقاوتها، بل كان من الممكن أن يقوموا بغشها تحقيقاً لمكاسبهم الخاصة دول النظر إلى المصالح العامة.

وقد أحدث منح كل سيد من السادة داخل أوروبا أيا كانت أهميته حق سك العملة فوضى في التعامل النقدي⁽²⁾، إلى جانب أن النقود، في فترات معينة كانت "تجمع" بمعنى أنها تسحب من دائرة التعامل المالى، وتؤخذ إلى دور الضرب، لإعادة سكها للجمهور في عملات جديدة تكون أخف وزناً وأكثر خلطاً في المعدن، وكان الأمراء يحصلون الفرق بين العملتين، وعلى هذا النحو تنقص القيمة الحقيقية للعملة، وحلت محل بنس شارلمان الفضى عملة ثقيلة الوزن ومخلوطة بمعدن النحاس، لدرجة أنه مع مطلع منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، لم تعد معظم الدنانير من الفضة الخالصة ولكن أصبح معظمها دنانير سوداء Nigri denarii⁽³⁾.

على أنه إذا كان النشاط التجاري والاقتصادى الذى تفجر في أوروبا قد تمكن من التغلب على بعض هذه المشكلات من خلال التنظيم الحكومى للأوزان والمعايير، إلى جانب اكتشاف معادن الفضة، على أنه لم يزد إنتاج الفضة السنوى في أوروبا، إلا بعد منتصف القرن الخامس عشر، حين استغلت مناجم الفضة في سكسونيا، وبوهيميا، والتيرول، وسالزبورج، والمجر، ولقد استغل أمراء هذه البلاد هذا التزايد في دائرة التعامل النقدي لصالحهم ولتحقيق أرباح خاصة بهم، وبسبب انفراد هؤلاء الأمراء بحق سك العملات فإنهم حولوا لأنفسهم استخدامها لثرواتهم الخاصة، مغفلين ثراء العامة، وكلما ازداد التعامل النقدي الذى صاحب الحياة الاقتصادية، تعرضت هذه النقود لكثرة الخلط والتزييف من قبل أولئك الذين تخصصوا في غش النقد، وأصبح من الشائع والمعتاد، خاصة في القرن الرابع عشر الميلادى، إصدار نقود جديدة، تناقصت قيمتها يوماً بعد يوم، وصارت النقود

(1) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج/2، ص 113.

(2) Painter, History of the Middle ages, P.236

(3) بيرين، تاريخ أوروبا، ص 109.

- الدنانير السوداء: هى دنانير ليست من الذهب الخالص ولكنها خلطت بمعادن أخرى، وصار الذهب يكون ثلث حجمها فقط. عن ذلك انظر:
- بيرين، تاريخ أوروبا، ص 109، الحاشية.

اتحاد الهانزا وأثره على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين

تجمع باستمرار وتسك وتوزع ثانية وهي في أسوأ حال من ذي قبل، وكانت هنالك عمليات مالية ماثلة كثيرة الوقوع في ألمانيا، فتغيرت العملة، وخلطت بمتوسط ثلاث مرات كل عام⁽¹⁾.

وهكذا كانت النقود تتعرض خلال العصور الوسطى لكثير من الأخطاط بسبب ما شابهها من خلط وتزييف، خاصة أواخر العصور الوسطى بسبب الحروب التي خاضتها أوروبا آنذاك والتي أدت إلى التلاعب في النقد، وبهذه الوسيلة استطاع الملوك أن يحصلوا على ما يحتاجونه من أموال، غير أنه ترتب على ذلك تدمير الأعمال التجارية.

فالتلاعب في النقد وخفض سعر العملة باستمرار أدى إلى الاضطراب الاقتصادي وإلى إفلاس كثير من التجار والممولين، يضاف إلى ذلك أن الملوك اقترضوا مبالغ ضخمة من المصارف الكبرى، فلما امتنعوا عن السداد، انهارت تلك المصارف، وبتداعيتها ساءت أحوال عدد كبير من الدائنين⁽²⁾، مثلما حدث مع مصرفي لومبارد Lombard، كما تم الإطاحة كذلك بتجار الهانزا⁽³⁾، وكذلك ما حدث مع المدن الفلمنكية من الإفلاس الجزئي نتيجة لما كانت تدفعه هذه المدن لكونتات الفلاندرز وملوك فرنسا مما جعلها تدخل أزمة اقتصادية متزدية في العقود الأولى من القرن الرابع عشر⁽⁴⁾.

كما أن ملوك فرنسا عمدوا إلى تخفيض قيمة النقود، فارتفعت أسعار الحاجيات والمتاجر وحدثت ارتباكات مالية، لجأ ملوك فرنسا بسببها إلى منابع جديدة للمال مثل الجابل Gabelle⁽⁵⁾، وهي ضريبة احتكار الملح وتقررت في عام 742 هـ / 1341م في عهد فيليب السادس (729 - 751 هـ / 1328 - 1350م) وغدت الجابل ركناً من أركان الدخل الملكي في فرنسا حتى الثورة الفرنسية⁽⁶⁾.

(1) بيرين تاريخ أوروبا، ص110.

(2) السيد الباز العربي، الحضارة والنظم، ص131.

(3) Terry, The Financing of the Hundred years, war, P.XX.

(4) عن المدن الفلمنكية والقروض (من القرن الثالث عشر إلى القرن الرابع عشر). انظر:

- Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, PP.538 - 542.

(5) الجابل Gabelle: ضريبة فرضتها فرنسا على إنتاج الملح، وظل التعامل بها حتى قيام الثورة الفرنسية.

(6) أسامة إبراهيم حسيب، تاريخ إنجلترا وفرنسا، ص321.

وهكذا تعددت المشكلات النقدية والمالية في أواخر العصور الوسطى في أوروبا، الأمر الذى دفع التجار إلى المطالبة بوضع قوانين رقابية مثلما حدث في كل من إنجلترا وفرنسا، خاصة أن العملة القومية قد انهارت، وتم استبدالها بعملات أجنبية أقل منها في القيمة، وقد صاحب ذلك العديد من الشكاوى بأن هناك عجز في الأموال المتداولة الخاصة بالاحتياجات اليومية، وهذا أدى بالحكومة أن تزيد من رقابتها على مدفوعات ما وراء البحار، وعليه فقد تم حظر تصدير السبائك والأموال المسكوكة من إنجلترا وفرنسا بتنظيم صارم⁽¹⁾.

وقد ألزمت إنجلترا مصدرى الصوف الانجليز أن يجلبوا معهم عند عودتهم سبائك تساوى كمية الصوف التى صدروها إلى الخارج، أما التجار الأجانب القادمين إلى إنجلترا فقد كان مفروضاً عليهم تسليم مبلغ معين من السبائك إلى دار سك النقود.

وعليه فقد أصبح انسياب السبائك أحد الأمور الرئيسية التى توليها الحكومات رعايتها وذلك على أساس أن (المال بالنسبة للجسد السياسى كالدّم بالنسبة للجسد البشرى) (وأن المال هو مقياس ثروات الشعوب وهو المستودع الذى توضع به المعادن الكريمة)، وهو شعار وضع على الأملاك العامة في فرنسا في عام 889هـ / 1484م⁽²⁾.

وهكذا ظل النقد في أواخر العصور الوسطى محل مناقشات ومداولات كثيرة بين ما أصابه من تزييف ومحاولات إصدار القوانين من أجل التحكم في عمليات سكه والتعامل به إدراكاً من الجميع بأهميته للعمليات التجارية خاصة التجار، على أن عمليات غش العملات لم تتوقف تماماً طوال العصور الوسطى فقد استمر الملوك والأمراء يغشون العملة ويرفعون من قيمتها بصورة جائرة، وظلت النقود تتبع منحى منحدرًا، وقد ضحت السياسة العامة بالمصالح الاقتصادية لحساب المصالح الحكومية⁽³⁾.

ونستطيع أن نؤكد هنا على أن المدن الهانزية لم تكن بمنأى عن كل هذه المؤثرات خاصة فيما يتعلق بالنقد إذ أن ما حدث من غش وتزييف - ملوك إنجلترا وفرنسا- للعملات قد أثر بلا شك على الحركة التجارية والاقتصادية التى كانت الهانزا جزء منها سواء في إنجلترا أو فرنسا على

(1) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.333.

(2) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.333.

(3) بيرين، تاريخ أوروبا، ص 115.

اعتبار أنها كانت مجالات تعاملات تجار الهانزا الخارجية ومقاراً لمراكزهم التجارية.

4 - تدخل السلطات الحاكمة في فرض قيود على الإتحاد:

ظلت الهانزا تتمتع بنفوذ مطلق على مدار سنوات طويلة، إذ لم يكن هناك أحد ينافسها في الشراء والسطوة خاصة مع ما نالته من امتيازات واسعة، لذا استمر توجه سياسة الهانزا بعد معاهدة سلام شترالسوند Peace of Stralsund عام 772 هـ / 1370 م⁽¹⁾، نحو الحفاظ على امتيازاتها الممنوحة لها، وقد تمثلت الطرق السياسية المتبعة لتحقيق هذه السياسة في التحالف والحظر الاقتصادي والحصار التجارى وكانت الحرب هي الملاذ الأخير، ولقد أوجدت هذه السياسة التقليدية فاعلية كبيرة طالما أنه لا يوجد منافسين أقوى مثل الدنمركيين أو الإنجليز الذين كانت لهم قدماً راسخة على شواطئ البلطيق Baltic، إذ حتى القرن الخامس عشر الميلادى لم يكن هناك رغبة أوروبية في التحالف الملكى الذى ظهر في البلدان الاسكندنافية Scandinavian فيما يتعلق بالسياسات الاقتصادية التى تحركها أهداف اجتماعية بسيطة، ومع ذلك فعندما حدث هذا التطور فإن احتكار الهانزا للتجارة الدولية أصبح موضعاً للجدل السياسى⁽²⁾.

إذ لو كان بين الممالك الاسكندنافية وحدها شىء من الرابطة فى اتحاد قوى، لاستطاعت أن تناهض التقدم التجارى بشمال ألمانيا فى العصور الوسطى، مناهضة خطيرة، لكن اتحاداً حقيقياً بين الممالك الاسكندنافية لم يوجد البتة، اللهم إلا اتحاد كالمار 1397 - 1523 م⁽³⁾،

(1) عن هذه المعاهدة انظر الفصل الثالث، الدور السياسى للهانزا، عن صراع اتحاد الهانزا مع فالديمار الرابع ملك الدانمارك ونتائجه. ص ص 175 - 176.

(2) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.392.

(3) قد جاء اتحاد كالمار نتيجة لانقراض البيوت الحاكمة فى الممالك السكندنافية، فعند وفاة فالديمار الرابع ملك الدانمارك عام 1375 م، كانت ابنته مارجريت زوجة لهاكون السادس ملك النرويج الذى كان هو نفسه الوريث الشرعى لعرش السويد، وإن كان قد أبعد عن هذا العرش نتيجة لعزل والده واختيار ألبرت الألمانى بدله (1363 - 1389 م)، على أن مارجريت كانت على درجة كافية من المهارة مكتبتها من تنصيب ولدها الصغير أولاف ملكاً على الدانمارك، وبذلك غدت بعد وفاة زوجها هاكون السادس سنة 1380 م وصية على عرش الدانمارك والنرويج جميعاً، ولكن أولاف توفى عام 1387 م فخلفته أمه فى العرش، وكان ذلك فى الوقت الذى ساءت الأحوال فى السويد بسبب الخلاف بين النبلاء السويديين وملكهم الألمانى، ولم يتردد النبلاء عندئذ فى دعوة مارجريت للتدخل ومساعدتهم ضد الملك المغتصب، باعتبارها صاحبة الحق الشرعى فى عرش السويد، فتدخلت مارجريت وانتصرت وبذلك أتاحت فرصة ذهبية لتوحيد الممالك السكندنافية الثلاث.

اتحاد الهانزا وأثره على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا
في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين

حين غدت الدانمارك والسويد والنرويج كلها تحت التاج الدانمركي⁽¹⁾.

ويمكن التذكير بأنه منذ أيام فالديمار ايترداج Waldemar Atterdag، كان للعصبة دائماً صوت مسموع في انتخاب أحد حكام الممالك الشمالية الثلاث في ذلك الركن الشمالى الغربى من أوروبا⁽²⁾. وهو ما حال دون اتحاد هذه الممالك الثلاث تحت حكم حاكم واحد مشترك⁽³⁾.

وإذا استطلعنا أحوال تلك الممالك الثلاث وكيف كانت سياستها تجاه مدن الهانزا الألمانية سنجد أنها اتسمت بالتذبذب في التعامل معهم ما بين السماح لهم بالامتيازات وما بين وقفها وتجديدها وفقاً لظروفها ولضغط الهانزا كذلك.

ففى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين أصبح لسكان المدن في الدانمارك Denmark، والنرويج Norway، والسويد Sweden، في كل دولة عقارات تتمتع بامتيازات، اعتمدت على دروهم كوسطاء في التبادل التجارى داخل الدولة، فلقد كانت فرصهم محدودة في جعل السياسات القومية تنعكس على مصالحهم الخاصة، والتي قيدتها السيادة التجارية لألمانيا وعلو نجم الطبقة الارستقراطية من الناحية الاجتماعية.

ومن الممكن أن يكون حدث هذا عندما اكتشف الملك أو الطبقة الارستقراطية أو كليهما

= ومقتضى اتحاد كالمار سنة 1397م رضيت النرويج والسويد والدانمارك بأن يحكمها جميعاً ملك واحد على الدوام، على أن الفوارق الطبيعية والخزانات المتبادلة بين الدول الثلاث فضلاً عن الانقسامات والمنازعات الداخلية، جعلت من الصعب استمرار اتحاد كالمار، بالرغم من أنه استمر في صورة اسمية ما يقرب من قرن. عن ذلك انظر:
- سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج/1، ص ص 608 - 609.

(1) فيشر، تاريخ أوروبا، ج/1، ص ص 229 - 230.

(2) Zimmern, The Hansa Towns, P.219.

- Kiesselbach, Die Wirtschaftlichen Grundla, P.270.

- Daenell, Die Blutezeit Der Deutschen Hanse, Vol. I, PP.42-43.

- سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج 1، ص 597؛ نعيم فرج، الحضارة الأوربية، ص 148؛ فشر، تاريخ أوروبا، ج 1، ص ص 228 - 229.

- لمزيد من التفاصيل عن صراع اتحاد الهانزا مع فالديمار وتناحجه. انظر الفصل الثالث (الدور السياسي للهانزا) مبحث صراع اتحاد الهانزا مع ملك الدانمارك. ص ص 199-201.

(3) Zimmern, The Hansa Towns, P.219.

أن مصالحهم عامة تكون مع أهل المدن، ومن ناحية أخرى فإنهم قد حققوا الامتيازات المطلوبة، لكنها كانت امتيازات في الواقع قليلة الأهمية⁽¹⁾.

كانت الطبقة الأرستقراطية المالكة للسفن والمسيطرة على البحر في الدانمارك هم الحماة الرئيسيين للتجارة فيما قبل قيام الهانزا، فقد بذلوا جهدًا ضائعًا مع أهل المدن النرويجيين من أجل وضع قيود على النفوذ التجاري الألماني، وبعد المصادمات الحاسمة التي وقعت في ثمانينيات القرن الثالث عشر الميلادي قامت الحكومة الملكية بإصدار مراسيم من وقت لآخر من أجل وضع العراقيل في طريق إنشاء مستعمرات ألمانية وتأسيس شركات أو اتحادات تجارية في النرويج، وفي عام 694هـ / 1294م تم منع التجار الأجانب من الإبحار شمال بيرجن Bergen، وفي العام التالي تم حظر تأسيس أى نقابات مهنية بوجه عام، وفي عام 715هـ / 1315م و 716هـ / 1316م، تم السماح ببيع سمك القد والزبد للأجانب في مقابل أن يجلبوا الجعة والدقيق والحبوب إلى الدانمارك.

وفي عام 1316م كان لوكلاء الملك الخيار الأول لشراء جميع السلع المستوردة، وفي عام 717هـ / 1317م تم السماح للأجانب بالعمل في التجارة في الفترة من 14 سبتمبر وحتى 3 مايو فقط مع تجار محددین ومعينين في كل مدينة ويكون ذلك مقيّدًا بالبيع بالجملة، وفي عام 718هـ / 1318م قام الملك هاكون الخامس Haakon V (614 - 992هـ / 1217 - 1263م) بإلغاء هذا الأمر، لكنه اشترط على التجار الأجانب أن يتاجروا مع النرويجيين فقط.

لقد تكرر هذا القرار مرة أخرى في عام 747هـ / 1346م وأضيف إليه الحظر على جميع تجارة التجزئة، وعلى التجارة مباشرة مع الفلاحين خارج المدن، لكن كل ذلك لم يحرك ساكنًا، ففي منتصف هذا القرن الذي صدرت فيه قوانين المنع قام سكان لوبيك Lubckers، بتأسيس مصنع تجارى ضخم في بيرجن، وقاموا بجذب تجارة الأسماك من الساحل الغربى للنرويج إلى تلك المدينة (بيرجن) وأصبحت السلطة بأيديهم وعندئذ أصبح وكلاء الملك معدومي الحيلة، إذ كان بأيديهم سلاح قاتل يستخدمونه ضد الدولة التي يحدث بها عجز دائم في الغذاء - وهو حظر إمدادهم بالحبوب وبالتدرج توقف النرويجيون من القتال على الرغم من أنهم لم يكونوا أبدًا راضين عن الدور التجارى الذى يلعبه الألمان، ومن الأهمية بمكان أن نذكر أن اختفاء هذه الروح القتالية تزامن مع

(1) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.392.

التدهور العام في النشاط السياسي لطبقة النبلاء النرويجيين⁽¹⁾.

وهكذا نستطيع أن نؤكد على أن السلطات الحاكمة في الممالك الإسكندنافية كانت تسعى بكل قوتها إلى مقاومة نفوذ العصبة الهانزية داخل أراضيها بما كانت تصدره من قوانين تعوق نشاطها، إلا أنها لم تتمكن غالباً من مواجهة ذلك بسبب سلاح حظر تصدير الحبوب إلى تلك المدن وهو السلاح الذي أثبت فاعليته على مدى سنوات طويلة ومكنها من البقاء والمقاومة، على أنه إذا كان الألمان قد تمكنوا من إضعاف الروح القتالية لهذه الممالك في البداية، إلا أنها تمكنت من خلال اتحادها من مقاومة نفوذ الهانزا في أراضيها مقاومة فاعلة، بل والتخلص من سلطة العصبة الهانزية الاحتكارية.

ونفس ما حدث في النرويج تكرر مثله في السويد Sweden، فقد قام الملك ماجنوس الثاني Magnus II في عام 748 هـ / 1347 م بتقييد التجارة المتوجهة إلى المدن ومنع الأجانب من العمل في تجارة التجزئة أو التجارة المباشرة مع الفلاحين، ومن ثم اضطر تجار المدن الغربية لفنلندا Finland، والمدن السويدية الواقعة شمال ستوكهولم Stockholm بالإبحار فقط إلى ستوكهولم ببضائعهم، وقد كان لوكلاء الملك الخيار الأول في بيع جميع السلع القادمة إلى المدينة، ولقد ظهر طموح النرويجيين في تخطي هذه القيود بشكل واضح، ويمكننا أن نتذكر أن السويد والنرويج انضمتا في اتحاد عام تحت زعامة ماجنوس.

حظيت جهود ترويج التجارة في ستوكهولم باهتمام مشترك من جانب الملك والنبلاء السويديين البارزين بمقاطعات مالار Malar الواقعة حول المدينة "ستوكهولم"، وفي نفس الوقت كانت هناك محاولة لتفعيل القانون لحماية المصالح التجارية للسكان السويديين (أهل المدن) من المنافسات الخارجية لكن هذا كان أمراً نظرياً أكثر منه عملياً، فقد سيطرت المدن الهانزية وخاصة لوبيك Lubeck، على التجارة الخارجية للسويد وظلت دون منازع حتى بعدما أصبحت البلاد تابعة لحكومة محلية، ومن ناحية أخرى لم توضع أى قيود على النقابات الألمانية في السويد لأن

(1) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, PP.392-393.

- لمزيد من التفاصيل عن مصنع بيرجن Bergen انظر الفصل الرابع مبحث مراكز العصبة الهانزية الخارجية في بيرجن، ص 227 - 238.

اتحاد الهانزا وأثره على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا
في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين

الألمان سيطروا على نقابتين تجاريتين كبيرتين في ستوكهولم، ولقد جنت السويد أرباحًا ثابتة من التجارة الألمانية ولم نر أى بديل حقيقى لقبول الهانزا كشريك تجارى وفي نفس الوقت كانت هناك حاجة إلى الدعم السياسى من قبل الهانزا ضد الدانمارك من أجل منع السويد من إبراز المصالح القومية في سياق النقاش حول الامتيازات والرسوم الجمركية⁽¹⁾.

وهكذا نجد أنه دائمًا تتصالح المصالح الاقتصادية حتى وإن تعارضت مع السياسة، فلقد كان لدى السويد رغبة أكيدة في تخليص سكانها من المنافسة الخارجية عن طريق إصدار القوانين اللازمة لحماية مصالح هؤلاء السكان التجارية، إلا أنها لم تنجح في مواصلة تلك السياسة لحاجتها الماسة لدعم الهانزا السياسى ضد الدانمارك.

أما إذا تناولنا بالحديث المملكة الثالثة من الممالك الإسكندنافية ألا وهى الدانمارك وعلاقتها بالهانزا، التى نجدها قد وقعت في مشاكل سياسية كبيرة مع الدانماركيين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، فعندما قامت الهانزا بدعم عرش مارجريت Margaret (1387 – 1412م) بعد اتفاقية سلام شترالسوند Stralsund عام 772هـ / 1370 م، فمن ثم فإنها حصلت على حقوق وامتيازات في ممالكها المتحدة في كل من الدانمارك والنرويج حتى وفاتها عام 815 هـ / 1412م⁽²⁾.

ويبدو غريبًا أن الدانمارك وهى أقوى دولة في الممالك الإسكندنافية تكون آخر من يطبق التشريع الوقائى الموجه ضد التجارة الألمانية، وهذا يبدو غريبًا لأن الدانمارك شعرت بآثار السيادة التجارية لألمانيا قبل النرويج، وحتى عام 799هـ/1396م، لم تكن الملكة مارجريت قد قامت بقصر جميع التجارة المتجهة إلى المدن في الدانمارك.

والسبب في ذلك قد يرجع إلى أنه حتى ذلك الحين لم يتم إخضاع نبلاء الدنماركية إلى الحد الذى يجعلهم عاجزين عن الدفاع عن التجارة المرعبة المباشرة في الماشية والمواد الغذائية مع الألمان، وعلى الصعيد الآخر فإن الاهتمام الحقيقى لثروة البرجوازيين بالمدن الدنماركية كان تابعًا لمرسوم

(1) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.393.

(2) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, PP.20-21.

مارجريت⁽¹⁾.

ولعل تلك السياسة التي اتبعتها مارجريت تعود إلى شعورها بقوة الهانزا خاصة بعد انتصارها على والدها فالديمار، ودعمها كذلك في الوصول للعرش.

على أنه حتى لو تبنت مارجريت ومستشاريها وجهات نظر مالية ضيقة الأفق في تعاملهم مع المدن، فقد كان من الواجب عليهم أن ينظروا إلى ميزة الزيادة السريعة في موارد التجار الدانمركيين إذ من الممكن أن يكون دار بخلدهم وتوقعوا إمكانية كسب حليف سياسى جديد⁽²⁾.

لكن خليفته إريك Eric 815 – 843 هـ / 1412 – 1439م، حاكم بوميرانيا Pomerania كان أقل بجمالة فأثناء جلوسه على حكم مدينة شلزويج Schleswig⁽³⁾، الواقعة على برزخ هولشتين Holstein، قد ورط إريك الهانزا في خدعة سياسية وفي حرب غير شرعية والتي صبت في صالح منافسيهم الهولنديين وأثرت على وحدة الهانزا⁽⁴⁾، ولقد دعا الملك إريك التجار الإنجليز والدانمركيين إلى مدينة لاندسكرون الجديدة The new town of Landskrona⁽⁵⁾، وأوقف امتيازات الهانزا في عام 827 هـ / 1423م عن طريق فرض رسوم جمركية جديدة على التجارة المارة عبر المضيق⁽⁶⁾.

وقد استغل إريك سيطرته على مضيق الدانمارك لمصلحته السياسية فقد قام بجباية مكوس من جميع السفن التي تمر من خلاله وقد رحب التجار الهولنديون والإنجليز في الموانئ الدانماركية والنرويجية بالخسارة الاقتصادية التي لحقت بالهانزا، وبعد وفاة أهم شخصية تاريخية في الهانزا، الدبلوماسي

(1) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, PP.393-394.

(2) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.394.

(3) شلزويج Schlewig: تقع شمال نهر سشيل Schile. عن ذلك انظر:

- Adam of Bremen, History of the Archbishop of Hamburg Bremen, trans. Taschan (F.J), New York, 2002, P.50, Note 167.

(4) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.21.

(5) لاندسكرون Landskrona: تقع مدينة لاندسكرون جنوب السويد على مضيق Oresund، وإلى

الشمال الغربي من مدينة مالمو Malmo. وتم تأسيسها من قبل إريك Eric ملك بوميرانيا

Pomerania، ملك السويد والدانمارك والنرويج. عن ذلك انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. VI, P.24.

(6) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.394.

المنك جوردان بليسكو Jordan Pleskow، في عام 829هـ / 1425م، والذي حافظ على العلاقات الدبلوماسية مع الدانمارك حتى ذلك الحين - قامت المدن الوندية بإعلان الحرب على الدنماركيين في الوقت الذي كان فيه الأسطول التجارى للهانزا قد بدأ يتجهز ثانية للقتال بعد أن لقي هزيمة في المضيق، فقد خسر إرك عندما نقضت السويد تحالفها معه، حتى أجبر على منح امتيازات غير مرغوب بها للهانزا، ومن ثم فقد تم خلعه من حكم البلاد⁽¹⁾، ولكن خليفته كريستوفر البافارى Chriatopher of Bavaria 843 - 852 هـ / 1439 - 1448م⁽²⁾، وأصل موقفه العدائي ضد الهانزا.

ولم تكن الخيانة التي قام بها البروسيون نتيجة لخطأ السيد الكبير لمنظمة الفرسان التوتون، وذلك لأن هذا التنظيم أساساً قد فقد سيطرته القوية في محاولته الفاشلة للحفاظ على احتكار الهانزا، وقد استاء مواطنوا بروسيا وجيرانهم البولنديون من السيطرة السياسية والاقتصادية للنظام التوتونى وسعوا إلى التجارة خارج الاتحاد الهانزى، وقد شجع الملك البولندى فلاديسلاف ياجيللو Viadislav Jagiello (788 - 838 هـ / 1386 - 1434)⁽³⁾، التجار على التجارة

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.21.

- كانت سياسة إرك قد أثارت سخطاً عاماً نظراً لمحاولاته مضاعفة نفوذه من جهة وزيادة الضرائب من جهة أخرى، وهكذا تجمعت عدة عوامل لتدفع السويد نحو الانفصال واختيار حاكم عليها من أبنائها عام 1425م، كذلك أعلنت الدانمارك عزل إرك سنة 1439م واختارت بدلا له كريستوفر البافارى، وبعد كريستوفر هذا اختار الدانماركيين كريستيان الأول، عن ذلك انظر:

- سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص609.

- عن الإطاحة بإرك انظر أيضاً:

- Keppen, The World in the middle ages, Vol. II, PP.545-546.

(2) كريستوفر البافارى: عاش في الفترة من (1418-1448م)، وقد تولى ملك الدانمارك (1439-1448م)، والسويد (1441-1448م)، والنرويج (1442-1448م)، وقد شهدت فترة حكمه انحساراً في السلطة الملكية نتيجة لسيطرة المراكز التجارية في شمال ألمانيا ممثلة في الرابطة الهانزية. عن ذلك انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. II, P.905.

(3) فلاديلاف ياجيللو: كان ياجيللو هو دوق ليتوانيا الأكبر، تزوج من ملكة بولندا (يادويجا) وفقاً لوثيقة كريفو Krewn في 14 أغسطس 1385م، فما إن بلغت يادويجا سن الثانية عشرة، حتى وصل ياجيللو إلى مدينة لوبلن Lublin في شرق بولندا في أول فبراير عام 1386م، وفي الثاني من فبراير اختير ملكاً على =

الخارجية وعندما حاول السيد الكبير عبثاً معاقبته فإن الفرسان التيوتون لاقوا هزيمة نكراء على أيدي البولنديين في عام 813هـ/ 1410م، وهذه الهزيمة التي وقعت في تاننبرج Tennenburg، غيرت مصير الفرسان إلى الأبد وقد سعوا على مدار نصف القرن الذي تلى ذلك إلى استعادة قوتهم، ولكن بلا فائدة ومن ثم فإن النظام تنازل في نهاية المطاف عن سيطرته على أغلب بروسيا وهولندا في اتفاقية ثورن Treaty of Thorn، في عام 871هـ / 1466م، وأصبح السيد الكبير تابعاً لملك بولندا⁽¹⁾.

وهكذا فقدت الهانزا أحد أعضائها المهمين ألا وهو النظام التيوتوني، على أنه لم يكن العضو الوحيد الذي خسرتة الهانزا إذ الأعوام التالية شهدت زيادة الفرقة والتفكك بين مدن الهانزا. ومما لا شك فيه أن هذه الأحداث لم تمر مرور الكرام بالنسبة للعصبة ففي الوقت الذي فقدت فيه احترامها وهيبته الدولية التي منحها لها النظام، فقد تحررت الهانزا من الأوزان الغير متكافئة والتي استخدمها الأعضاء وهي كبيرة الحجم وغير متجانسة. إن التغيرات الرئيسية في كيفية حمايتهم للتجارة البرية مثلت أهمية كبيرة لوارداتهم ففي الوقت الذي ظلت فيه داننرج تتبع الهانزا وتمتع برخاء كبير بسبب توسعها التجاري واستقلالها الذاتي كانت مناطق أخرى للهانزا قد بدأت في الإنحسار، وكانت العقبة الأولى هي أن هذا النظام العاجز قد أثر على منطقتي ليفونيا وروسيا. إن السيادة القوية التي فرضتها الهانزا على نوفجورود الحد الشرقي لها قد فقدتها في حروب

= بولندا، وبعدها بعشرة أيام دخل بشكل مهيب وفي احتفال ضخم مع إخوته وأبناء عمومته إلى العاصمة كراكوف وفي الخامس عشر من فبراير 1386م تعمد ياجيللو وتسمى باسم مسيحي هو فلاديسلاف وفي الثامن عشر من نفس الشهر أتم زواجه من ملكة بولندا وفي الرابع من مارس نصب فعليا ملكا على بولندا. عن ذلك انظر:

- محمد السيد صديق، منظمة الفرسان التيوتون، ص 164 - 165.

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, PP.21 - 22.

- لمزيد من التفاصيل عن معركة تاننبرج واتفاقية ثورن انظر الفصل الثالث، الدور السياسي للهانزا، مبحث دور منظمة التيوتون في اتحاد الهانزا، ص 168 - 176.

- See Also: Jan Dtugosz, The Annals of Jan Dtugosz, PP.374-408.

إيفان الثالث Ivan III⁽¹⁾، في القرن الخامس عشر وفي الأعوام التي تلت حكم بروسيا، أما غيرها من المدن الليفونية الأخرى مثل دوربت وريجا وريفال Dorpat, Riga, and Reval فقد بدأت في تفضيل التجار المحليين على غيرهم⁽²⁾.

هكذا أخذت العزل والفرقة تتكالب على مدن الهانزا، إذ أن القوة الوحيدة الفاعلة التي كانت تطبق من خطط الحظر والحصار الاقتصادي لم تعد تجدى نفعًا بفضل الهيمنة الهولندية وبفضل التجار المنافسين من ألمانيا الشمالية خاصة تجار نانبرج Nunberg، وقد انضمت أغلب التحالفات السياسية في أغلب المدن اللهم باستثناء إنجلترا. ففي الوقت الذي كان لا يزال فيه حكام ليفونيا واسكندنافيا وبيرجندي عندهم الرغبة في التجارة فإنهم اختاروا زيادة المصالح الممنوحة للتجار التابعين لهم على المصالح الممنوحة للألمان⁽³⁾.

من ذلك ما قام به كريستيان الأول Christian I 854 – 886هـ / 1450 – 1481م⁽⁴⁾، حين سمح للتجار الألمان في عام 880هـ / 1475م، بالإبحار إلى الموانئ الدانماركية في الوقت الذي منع فيه التجار الدانماركيين عن الإبحار إلى ألمانيا وأصدر مرسومًا يحدد المرافق

(1) إيفان الثالث Ivan II: حاكم روسيا، هو إيفان إلكسندروف الروسي Russia Ivan Vasilyevich (1440-1505م)، قد عزز سلطة النظام الملكي ووضع الأسس لقيام دولة مركزية، وجعل موسكو قوة عظمى. كما كان له الفضل في الاستيلاء على أوكرانيا Ukraine من بولندا Poland وليتوانيا Lithuania. عن ذلك انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. V, P.475.

(2) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.22.

(3) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.22.

(4) كريستيان الأول: اختاره الدانمركيون، بعد كريستوفر البافاري - وهو أمير أولدنبرج وورث شلزويج- هولشتين

وقد دأب كريستيان الأول على تحسين مركزه في النرويج، كما ورث شلزويج هولشتين عام 1460م، وقد استمرت السويد في موقفها العنيد من الاتحاد (كالمار) فاختارت أحد أبنائها وهو = شارل الثامن ملكا عليها ولكن كريستيان الأول استطاع التخلص من هذا المنافس ليضمن بقاء الاتحاد الإسمي الذي يحقق له نفوذا صوريا في السويد، ومع ذلك لم يرض السويديون بالهزيمة فشاروا ثورة جامحة وأجبروا كريستيان على تنصيب أحد أبناء السويد نائبا عنه على أن تكون بيده السلطة الفعلية في البلاد. عن ذلك انظر:

- سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص ص 609 – 610

- عن المقاومة السويدية ضده كذلك ونتائجها، انظر:

- فيشر، تاريخ أوروبا، ج1، ص ص 230.

المختصة بصادرات الخيول والماشية من الريف الدنماركي إلى ألمانيا، ومع ذلك وفي نفس المرسوم تم منع الألمان من قضاء فصل الشتاء في المدن الدانماركية وقام بإلغاء جميع النقابات الألمانية، وفي عام 882هـ/1477م، تم السماح للدانماركيين بالإبحار إلى ألمانيا لكن استمرت القيود المفروضة على الألمان منها عدم السماح لهم بالإقامة الدائمة في الدانمارك، وفي عام 896هـ/1490م، جدد الملك هانس Hans، هذه القيود بعبارة قوية ومنع البرجوازيين الدانماركيين من أخذ أموال وسلع من التاجر الأجنبي، بل يكونوا مفوضين من قبله أو يقوموا بالبيع لحسابه، وفي نفس العام قام بعقد معاهدات تجارية مع إنجلترا وهولندا وقد شهدت الأعوام التي تلت هذه المعاهدات تعاوناً سياسياً مع قيصر روسيا والرئيس الجديد لنوفجورود⁽¹⁾.

وعندما تولى العرش الدانماركي كريستيان الثاني Christian II⁽²⁾، عام 919هـ/1513م، اتخذ موقفًا أكثر حزمًا خاصة مع ما اتصف به في التاريخ من أنه طاغية، فقد كان حاكمًا للنرويج Norway قبل أن يتولى عرش الدانمارك، وبهذه الصفة من الممكن تصور مدى الكراهية المريرة ضد هؤلاء الأجانب الطغاة، (هؤلاء هم الإسكافيون الألمان)، كما دعاهم، حتى أنه غامر وقام بإغلاق أبواب مدينة بيرجن Bergen في وجههم، وقال أنه بالفعل يفضل توسعة حجم تجارته بجميع الطرق غير طريق الهانزا، وقد حاول اتخاذ وسائل أفضل وأهدأ لأهل بيرجن ومواطنيها المظلومين لأن الخوف مازال كبيرًا على الرغم أنه عندما توج كريستيان ملكا على الدانمارك لم يضع عقبات وعراقيل في سبيل مباشرة تجديد جميع المعاهدات والامتيازات الهانزية المنصوص عليها، وذكر أنه يجب أن تكون موائء النرويج مفتوحة أمام الهولنديين، وفي مقابل ذلك رغب في مساعدتها ضد السويد Sweden، التي كان في حالة حرب معها لذا فإن العصبية وعلى رأسها

(1) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.394.

(2) كريستيان الثاني Christian II: عاش في الفترة من (1481-1559م) تولى ملك النرويج والدانمارك (1513-1523م) وتمثل فترة حكمه نهاية لاتحاد كلمار (1397-1523م) وهو اتحاد سياسي يضم (الدانمارك والنرويج والسويد) حصل على التاج الذي مُنح له بامتيازات كبيرة وكان يشمل سيادة على الحكومة من قبل النبلاء في مجلس الدولة. وقد منح التجار امتيازات تجارية ولبي مطالب النبلاء الدانماركيين وتجار العصبية الهانزية في اتحاد تجار الشمال الألماني. انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. II, P.896.

لوبيك سعدت بتولى هذا الملك الجديد وموقفه بالنسبة لهم، ولكن لم تمض عدة سنوات إلا وقد اكتشف أن كريستيان أكثر صرامة من أسلافه السابقين، فقد كره الهانزا، واستاء من أن المضيق والبحر الدانماركي خاضعين للسيطرة الأجنبية، والسيطرة المطلقة للهانزا في أسواقه⁽¹⁾.

لقد كانت خطته التي وضعها في عام 1520/927هـ، تهدف إلى توحيد جميع التجار الإسكندنافيين ودمجهم في شركة تجارية كبيرة وذلك نتيجة منطقية لزيادة نفوذ البرجوازية على السياسة الدانماركية⁽²⁾، فقد كان هدفه من هذا الاتحاد كسر قوة الأرستقراطية، ورجال الدين، وتحرير شعبة الفقير من القيود التي كانت تفرضها عليهم الهانزا لمدة تسعة قرون، وقد كان ذلك يمثل الحقيقة أصدق تصوير لكن كانت هناك حاجة لأن يتم تنفيذه بحنكة واعتدال، إلا أن كريستيان لم يكن يمتلك هذه القدرات، بل أنه أصبح شخصاً مكروهاً بسبب قسوته وأسلوبه المتعطر⁽³⁾.

ونجمل ما سبق فيما ذكره المؤرخ الاقتصادي بوستان Postan، من أن السياسات التجارية لحقبة العصور الوسطى في منطقة البلطيق Baltic، من أولها إلى آخرها هي سياسات هانزية Hanseatic، ولقد ظهرت بعض الإجراءات المناهضة لها من قبل الدول الإقليمية. ففي القرن الخامس عشر الميلادي بدأت الدانمارك والسويد، في العقود الأخيرة من هذا القرن، في استحداث قوانين انبثقت بشكل ظاهر من القوى التجارية في المدن المطلة على المضيق أو استجابة للمصالح التجارية لتجار ستوكهولم Stockholm، وأصحاب المناجم بالسويد، إذ أن الهيمنة التجارية للهانزا مكنتها من تأمين قبضتها السياسية منذ أقدم العصور على الطبقة البرجوازية في جميع بلدان البلطيق حيث عمل المستعمرون الألمان كوسطاء تجاريين.

ويعكس النقص في السياسات التجارية الفاعلة في اسكندنافيا Scandinavia، ضعف التجار الأصليين (أهل البلاد)، إلا أنه في القرن الخامس عشر الميلادي حصلت بعض مجموعات منها على قوة كافية مكنتها من صياغة سياستها، وهذا بدوره أدى إلى تطوير الأفكار الاقتصادية على المستوى القومي الحكومي، وعليه فإن الهانزا واجهته مشكلات حقيقية في مواصلة سياستها في

(1) Zimmern, The Hansa Towns, PP.219-220.

(2) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.394.

(3) Zimmern, The Hansa Towns, PP.220-222.

اسكندنافيا⁽¹⁾.

على أن اتخاذ مثل هذه التدابير المناهضة للعصبية الهانزية لم تكن تقتصر فقط على الممالك الاسكندنافية؛ بل اتخذت إنجلترا مثل هذا الموقف، فلقد رأينا من قبل كيف كان الشعب الإنجليزي رافضاً لسياسة الاحتكار الهانزي لتجارة الصوف الإنجليزي، وأنه اتخذ موقفاً عدائياً من العصبية امتدت لحرب أبجلو هانزية قصيرة بيد أن الملوك الإنجليزي دأبوا على تجديد الامتيازات لهم بسبب قيامهم بتمويل هؤلاء الملوك خلال حروبهم والتي امتدت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، إلا أن بعض الملوك الإنجليزي اتخذوا موقفاً مغايراً من الهانزا، من هؤلاء الملك هنري الثامن Henry VIII⁽²⁾، الذي لم يضع العوائق في سبيل تجديد الامتيازات الهانزية، إذ كان لا يزال يرغب في الحصول على المال الهانزي، لكن بعض وزرائه وخاصته رفعوا راية الحرب كما أن كل من مدينة ولزي Wolsey، وكورمويل Cromwell، اتخذتا سياسة مناهضة الألمان، وأصبح هناك أعمال شغب ضد الأجانب الموجودين بها حتى أصبح أول يوم في مايو عيد سنوي لديها تقريباً، وقد قام مجلس مدينة لندن London بتقديم التماس لإقصائها والتخلص منها، وفي الأول من مايو عام 1517م، اندلعت حالات شغب مناهضة للأجانب تدريجياً وبصورة غاية في الخطورة حتى أن الملك أرسل بنادق وقوات من البرج Tower، لقمعها.

وهكذا نرى أن المشاحنات ضد الهانزا لا تنتهي، ولقد ظلت السنوات التالية تحمل المفاوضات بين الهانزا والسلطات الإنجليزية فما تكاد تحتتم المفاوضات حتى يتجدد النزاع مرة أخرى⁽³⁾، ولعل ذلك الأمر ظل حتى تم تدمير ستيليارد لندن في عام 1077هـ/ 1666م.

بالإضافة إلى ما سبق جاءت الفرقة بين المدن الهانزية، وعدم الولاء من قبل بعض أعضائها -مثل بروسيا ودانزيج، وغيرها- بأثر عكسي على وحدة الهانزا، إلى جانب عدم التآلف فيما بينهم

(1) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.396.

(2) هنري الثامن Henry VIII: ملك إنجلترا، عاش في الفترة (1491-1547م)، يعتبر واحداً من أقوى الملوك الإنجليزي الذين برزوا في بدايات حركة الإصلاح الإنجليزي، وقد نجح في الوصول إلى العرش الإنجليزي في عام 1509م. عن ذلك انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. IV, P.1028.

(3) Colvin, The Germans in England, PP.150-153.

نتيجة لفرض المزيد من الضرائب الجديدة، والتي رفضتها بعض المدن - مثل كولونيا - مما أدى لابتعادها عن الهانزا والتي قامت بإبعاد كولونيا رسميًا من عضويتها في عام 876هـ/ 1471م، كما وجدت عوامل محلية ساعدت على تزايد الفارقة بين المدن الهانزية⁽¹⁾.

هكذا أخذت الأخطار تحيق بالنجاح الهانزي في ذلك الوقت ليس في إنجلترا فحسب، وإنما في غيرها من البلدان كذلك، فقد تغيرت اقتصاديات وسياسات الأسواق الأوروبية ولم تعد الهانزا قادرة على التغيير معها، فالشعوب التي تخلصت من الحكومات الإقطاعية قامت بتغيير النظام العالمي، وبدأ شركاء الهانزا التجاريين بتفضل مواطنيهم في المبادلة التجارية، على غيرهم وهذا أدى إلى الإغلاق الإلجباري لمراكز الهانزا التجارية، وأوجدت منافسة جسيمة على تجار الهانزا. أما الامتيازات السياسية فقد تغيرت في اسكندنافيا Scandinavia، والفلاندرز Flanders، وبروسيا Prussia، والمناطق الشرقية للبلطيق Baltic، وغيرت تركيبة القوة والسلطة التي كانت تفضل الاستبداد حتى على الجماعة التجارية الضعيفة عسكريًا. وقد حلت الابتكارات التي تم التوصل إليها في المجال التكنولوجي والملاحي للدانمارك، وكذلك السفن الملاحية الجديدة التي تسير في الطريق الملاحى الجديد في مضيق الدانمارك محل التكنولوجيا الهانزية التي عفى عليها الزمن وتم الاستغناء عن طريق لوبيك Lübeck، هامبورج Hamburg، البرى أسفل شبه جزيرة جوتلاند Gotland⁽²⁾. وهكذا لم يعد ميزان القوة في صالح الهانزا وإنما أخذ في التغيير مع تبدل الأحوال من حولها وتكالبت عليها المشاكل من الداخل والخارج، فقد حارب الأمراء الألمان الإقطاعيون العصابة الهانزية بعد أن رأوا في ازدهارها خطرًا على سلطاتهم ونفوذهم⁽³⁾. إلى جانب أن العصابة الهانزية رفضت قبول تجار المدن الأخرى معها في الوقت الذى كانت هذه المدن تسمح للتجار الهانزيين بالتردد عليها، مما أدى إلى إثارة العداوة بين الطرفين حتى انتهى الأمر إلى الصراع المسلح⁽⁴⁾.

إذًا فإن العصابة قد كالت الأمور بمكيالين مما أضر بتجار المدن الأخرى وكان من الطبيعى جدًا أن ينشب مثل هذا النزاع المسلح بين الطرفين حتى وإن كانت مدن العصابة قد نجحت في أن

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, PP.23-24.

(2) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.18.

(3) نعيم فرج، الحضارة الأوروبية، ص 149.

(4) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج 1، ص 599؛ نعيم فرج، الحضارة الأوروبية، ص 149.

تواجه مثل هذا التمرد والعصيان ضدها في زمن قوتها وازدهارها لكن هذه الأسباب مجتمعة أدت حتما إلى انهيارها، هذا إلى جانب أن الدول الخارجية التي كان للعصبة الهانزية مراكز وامتيازات اقتصادية أو سياسية فيها، أخذت في القرن الخامس عشر الميلادي تدخل دورًا جديدًا من الاستقرار والتنظيم السياسي، فانحل النظام الاقطاعي وظهرت الملكيات القوية⁽¹⁾. ففي أواخر ذلك القرن تطورت الأوضاع السياسية تطورًا غير ملائم لمصالح الشركة العامة للتجار الألمان (General Company of German Merchants)، وهو الاسم الرسمي لعصبة المدن الهانزية- فطغت سلطات الملكيات الاسكندنافية وغيرها من الملكيات الشمالية، على سلطات أرباب المدينة في تلك المدن، بل تبين أن ولاء الواحدة من تلك المدن للمملكة التابعة لها أقوى بكثير من ولائها لاتحاد لم يكن في الواقع إلا شركة تجارية، يحسد وينافس أعضاؤها بعضهم البعض، برغم ما بينهم من مصالح عديدة ومنافع مشتركة⁽²⁾. ثم ما لبثت كل من براندنبرج⁽³⁾، وبرجنديا، والسويد أن قضت على عصبة المدن الهانزية ونفوذها في أقاليمها، حتى إذا ما انتهى القرن الخامس عشر الميلادي أمست تلك العصبة ومدتها في حال غير الحال⁽⁴⁾.

تغيرت المنافسة حيث أصبحت في سوق تجارى أكثر انفتاحًا ومن ثم أصبحت خطط الحصار والحظر الاقتصادي الذي كانت تمارسه الهانزا غير ذي جدوى، وعليه فقد دمر النزاع والفرقة القوة المؤسسية للهانزا، فازدادت حدة الخلافات الإقليمية سوء، وتوقف النمو الحركي حيث انتهت

(1) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص599.

(2) فيشر، تاريخ أوروبا، ج1، ص229؛ نعيم فرج، الحضارة الأوروبية، ص149.

(3) براندنبرج: إقليم في جنوب غرب بروسيا بين ألمانيا وبولندا استقرت به قبائل السوفى Suevi الجرمانية منذ وقت مبكر من العصور الوسطى، وفي القرن العاشر قام الإمبراطور الألماني هنرى الأول 919 - 936م بغزوه وفرض المسيحية عليهم، أما ابنه الإمبراطور أوتو الأول 936 - 973م فقد جعل من براندنبرج مقاطعة عسكرية يقوم على حكمها حكام عسكريين تابعين للإمبراطور مباشرة، وقد تدفق المستعمرون الألمان عليها حتى غلب العنصر الألماني فيها، ومن ثم أصبحت ولاية ألمانية، وكان بيت الكسمبورج من أشهر العائلات التي حكمت براندنبرج لفترة طويلة. عن ذلك انظر:

- محمد السيد صديق، منظمة الفرسان التوتون، ص105، حاشية 6، لمزيد من التفاصيل عنها انظر:

- Fay, Sidney Bradshaw, The Rise of Brandenburg Prussia to 1786 (New York, 1947), PP.3 - 6.

(4) فيشر، تاريخ أوروبا، ج1، ص229.

عملية التوسع في الأراضي الشرقية للألب، أما الأحوال الاجتماعية فقد تغيرت وتصاعدت المشكلات بين مجموعة الأعضاء وأعضاء مجالس التجار لمدن الهانزا حيث تم تحقيق حالة النضج وتم ازدياد تجار الهانزا من قبل التجار المنتصرين⁽¹⁾. خاصة مع تمسك العصابة الهانزية بامتيازاتها القديمة ورفضها التمشي مع روح العصر والتخلي عنها مما أوقعها في صراع آخر⁽²⁾. إلى جانب زوال المبررات والأسباب الملحة التي من أجلها قامت الهانزا، من انعدام الأمن على الطرق وعدم وجود عدالة اجتماعية دولية، وغيرها من الظروف غير الملائمة التي لم تعد قائمة حينئذ إذ تم تأمين الطرق وتحقيق العدالة⁽³⁾.

أما العوامل الخارجة عن إرادة العصابة فأهمها أنها كانت تستمد جزءاً كبيراً من أرباحها من مصايد سمك الرنجة Herring، في بحر البلطيق، حتى أدت أسباب طبيعية مجهولة إلى هجرة هذا النوع من السمك من هذا البحر في النصف الأول من القرن الخامس عشر حوالي عام 829هـ/1425م، الأمر الذي سبب للعصابة الهانزية خسارة فادحة⁽⁴⁾. إذ فقدت بذلك الأفضلية التي أحرزتها في الصيد فقد تبخرت هي الأخرى حين ترك هذا السمك منطقة البلطيق وبدأ يضع بيضه في بحر الشمال منذ بداية هذا القرن⁽⁵⁾. فخسرت مدن العصابة الهانزية أرباحها الكبيرة من صيد تلك الأسماك⁽⁶⁾. وبذا غدت مصايد الجزر البريطانية مصدر العيش الحلال لأجيال وأجيال من الصيادين الانجليز والاسكتلنديين، واختفى التجار الايسترنج من ميادين التجارة البريطانية، وحل محلهم تجار بريطانيايون⁽⁷⁾. إلى جانب ما قام به الهولنديون من ارتياد بحر البلطيق فقد بدأت أهمية شمال هولندا وزيبلند التجارية تظهر في ذلك البحر في القرن الرابع عشر الميلادي، فأخذت المدن

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.18.

(2) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص599.

(3) Zimmermann, The Hansa Towns, P.212.

- سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص599.

(4) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص599 - 600؛ نعيم فرج، الحضارة الأوروبية، ص149.

(5) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.18.

(6) نعيم فرج، الحضارة الأوروبية، ص149.

(7) فيشر، تاريخ أوروبا، ج1، ص229.

الهولندية، أمثال امستردام Amsterdam وروتردام Rotterdam⁽¹⁾، وغيرهما تشارك في تجارة البلطيق باتخاذ الطريق البحري حول جوتلاند، فأدرك تجار لوبيك ما يتهدهم من خطر إذا تغير الطريق، ومع ذلك مضى الهولنديون في نشاطهم التجاري بالبلطيق، بنقل سلع الهانزا، ثم أخذت المنسوجات الهولندية تدخل أيضاً إلى البلطيق⁽²⁾. خاصة مع تفوق تجارة وصناعة أنتويرب قرابة عام 829 هـ / 1425م، والأكثر من ذلك أن بيرجنديا Burgundy دعمت وبشدة التجارة الهولندية الناشئة وبالتالي فإن التجار الهولنديين حلوا محل تجار الهانزا وسيطروا على الطريق الشمالي، ولكن ذلك حدث في أواسط القرن الخامس عشر الميلادي حيث بدأ التغيير في النظام الاقتصادي يصب في صالحهم، وبالتواجد الهولندي في المجال التجاري فإن ذلك كتب نهاية لخطط الحظر التجاري التي كانت تتبعها الهانزا ففي عام 855هـ / 1451م، وتحت زعامة لوبيك حاولت الهانزا اتخاذ حظر تجاري على الثياب الفلمنكية لكنه لم يجد نفعاً، وكان هذا بمثابة آخر حظر تجاري قامت به الهانزا ضد أي بلدة من البلدان، بسبب الأثر الكبير الذي تركه تطور الهولنديين في طريقه بيع ثيابهم في الأسواق الفلمنكية من قبل، ومن ثم فقد باتت الهيمنة الهولندية أمراً محتوماً.

بدأ الانشقاق الهانزي عندما رفض أعضاؤه مشاركة السيد الكبير لمنظمة الفرسان التوتون لهم فقد ظل البروسيون محل جذب للهولنديين بسبب تخفيض رسوم الشحن عبر الطريق البحري الجديد الذي يمر بالمضيق المخازي أو الموازي لمدينة لوبيك ووسطائها⁽³⁾. حتى أن المدن التابعة للهانزا نفسها أخذت في البحث عن مصلحتها الشخصية والذاتية بعيداً عن مصلحة الاتحاد ذاته وليس من شك في أن هذا يمثل نقطة الانحدار والسقوط بكل تأكيد.

كان مركز قوة وسلطة الهانزا سابقاً يقع على ساحل البلطيق فقد ظهرت على شواطئه ونمت في البداية فكرة تأسيس العصبة التي ازدهرت ونمت في هذه الأماكن، وكما أنها تلقت الضربة

(1) روتردام Rotterdam: ميناء أوروبي رئيسي، وثاني أكبر مدينة في هولندا، في مقاطعة هولندا الجنوبية (جنوب هولندا). عن ذلك انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. VIII, P.688.

- عن منافسة مدينتي أمستردام وروتردام لتجار المدن الهانزية. انظر:

- Postan, Medieval trade and Finance, P.235.

(2) السيد الباز العريني، الحضارة والنظم، صص 137 - 138.

(3) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.20.

اتحاد الهانزا وأثره على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا
في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين

القاضية التي أودت بها إلى الموت في نفس هذا المكان، فلقد رأينا كيف تقدم الهولنديون تدريجياً في القرن الخامس عشر الميلادي، حتى أصبحوا منافسين خطرين للعصبة فقد هيا لهم موقعهم الجغرافي الظروف ليكونوا أكثر تحرراً من الهانزيين، الذين أخضعوهم لسلطانهم، لكنهم اتسموا بالدهاء في مواجهة ذلك، فلم يكونوا أقل حرصاً من منافسيهم، بل كانوا مثلهم في التصرف بحكمة عندما استفادوا من الصراعات الدائرة خارج بلادهم. إذ لا بد أن نستشف أن الشعوب الاسكندنافية Scandinavian وملوكهم كانوا يرزخون تحت الاستبداد المطلق الذي كان يمارسه عليهم هؤلاء التجار الألمان، فقد اقترحوا بديلاً للهانزا يتمثل في تقديم المال والدعم للملوك وتسهيل وتحسين ظروف التجارة للسكان الأصليين، وقد قبل هؤلاء هذه المقترحات بشكل غير رسمي، ولم يكن الحكام ولا المحكومين يتجرأون أنفسهم حتى الآن على التصدي للعصبة علناً لكنهم لم يبدوا أسفاً على انهيها لأن الهانزا ما زالت قادرة على الحفاظ على منافستهم، فكان القلق ينتابهم من أعمال القرصنة من ناحية، والإصرار على مطالبهم القديمة في الحقوق التجارية من ناحية أخرى⁽¹⁾.

لذا فإن تلك الشعوب وعلى رأسها الإمبراطور شارل الخامس Charles V (1519-1556م)⁽²⁾. لم يكونوا أسفين على رؤيتها وقد أضعفتها المنافسة، لأن ملوك الدانمارك فرضوا قيوداً على الاتحاد⁽³⁾.

وعلى الرغم من أن لوبيك قد تزعمت في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي، مقاومة الهولنديين، إذ نشبت الحرب بين الهانزا والهولنديين في عام 842هـ / 1438م، بسبب ما تقرر فرضه من قيود على التجارة الهولندية وبانتهاء الحرب عام 845هـ / 1441م، أرغم الهولنديون اتحاد الهانزا على الاعتراف بحرية التجارة في البلطيق، والدليل على هذا التغيير ما حدث من تداعي بروج مركز تجارة الهانزا في الغرب بسبب تراكم الطمي في الميناء، وما جرى من نهوض أمستردام وما أصابه

(1) Zimmer, The Hansa Towns, PP.217- 219.

(2) شارل الخامس Charles V: الإمبراطور شارل الخامس هو نفسه شارل الأول ملك أسبانيا Spain، عاش في الفترة (1500-1558م) وهو أحد أعظم ملوك أسبانيا، وقد أصبح إمبراطوراً رومانياً (1519-1556م) وربما كان الإمبراطور الأخير الذي قام بمحاولة تحقيق فكرة القرون الوسطى بشأن إقامة إمبراطورية موحدة تحتضن العالم المسيحي كله. عن ذلك انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. II, P.758.

(3) Zimmer, The Hansa Towns, PP.219 – 220.

- Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, PP.394-395.

اتحاد الهانزا وأثره على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين

الهولنديون من نجاح وما لحق الهانزا من فشل يعتبر خاتمة عالم العصور الوسطى⁽¹⁾.

هذا كله بالإضافة إلى اكتشاف الطريق البحرى إلى الهند من جهة وأمريكا من جهة أخرى مما أحدث انقلابًا خطيرًا وثورة عنيفة في اتجاهات التجارة الأوروبية، فأصبحت هذه التجارة تتجه نحو الغرب والجنوب دون أن تستطيع العصابة الهانزية مسايرة هذه التطورات الجديدة⁽²⁾.

مثلت السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر بداية لتاريخ أوروبا الحديث، إذ أنها دلالة على الانتقال من روح العصور الوسطى إلى روح العصور الحديثة، والتي تحتص بعدد من العوامل القوية مثل التنمية البشرية والإصلاح واكتشاف أمريكا⁽³⁾. إذ بزغ فجر ذلك العصر الحديث في بداية هذا القرن على اكتشاف هذا العالم الجديد، وطرق جديدة تؤدي إلى الشرق الأقصى، وقد حطم الاقتصاد القديم الكميات الضخمة من الذهب التي جرى الحصول عليه وما تلى ذلك من الثورة التجارية⁽⁴⁾. كل ذلك كان إيدانًا بانتهاء العصابة الهانزية.

وهكذا نستطيع أن نؤكد على أن الهانزا قد نمت حتى سيطرت على التجارة في أوروبا الشمالية قرابة قرنين من الزمان، ولكن بعد ذلك وتحديداً في القرن الخامس عشر الميلادى حدثت تغيرات في بيئتها الداخلية والخارجية والتي أوجدت ظروفًا لم يجد معها دعم المجموعة التجارية الاحتكارية والتي تعتمد على التوسع الاقتصادى المنهك للقوى، وعلى حلفاء دبلوماسيين لا يسمنون ولا يغنون من جوع وعلى تكنولوجيا عفى عليها الزمن وعلى طرق برية غير فاعلة.

ومع ذلك فقد كانت الهانزا شيئًا مثيرًا للمشاعر، فهى يجب أن تكون مثالاً يحتذى الآن.

فهذه الوحدة السياسية للتجار والتي شكلت تحالفًا اقتصاديًا ناجحًا بين الأعضاء المخلصين الذين أثبتوا وجودهم في عالم العصور الوسطى، وكانوا قادرين على الدفاع عن حقوقهم

(1) السيد الباز العريبي، الحضارة والنظم، ص138.

(2) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص600؛ نعيم فرج، الحضارة الأوروبية، ص149 - 150.

(3) Zimmern, The Hansa Towns, P.211.

(4) السيد الباز العريبي، الحضارة والنظم، ص138.

إذا لزم الأمر⁽¹⁾.

كذلك فطنت أوروبا إلى أهمية ما قامت به الهانزا فأقامت السوق الأوروبية المشتركة حالياً والتي أثبتت قوتها وفعاليتها في مواجهة الأزمات بل وفي السيطرة والتحكم التجارى فى العالم.

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.25.